
ALL QUIET ON THE WESTERN FRONT
فريق
متميزون
E-BOOK
إيريك ماريا ريماك
كل شيء
هادئ
على
الجبهة
الغربية
ترجمة | محمد عبد العزيز
كتوبيا
KOTOPIA
PUBLISHING
HOUSE
ترجمات



https://t.me/kotokhatab

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

كلُ شيءٍ هادئ
على الجبهة الغربية
رواية مترجمة..

الكاتب: إيريك ماريا ريماك
ترجمة: محمد عبد العزيز



عن الرواية..

يرسم الكاتب الألماني إيريك ماريا ريمارك (1898-1970) صورة مرعبة عن كوارث الحرب العالمية الأولى، وأنت تلمس هنا مع الراوي العليم للأحداث أنه هو ورفاقه من الشباب الصغير الذي تطوع في الحرب، لا يدركون الهدف الذي من أجله تم سوقهم إلى تلك المجزرة، لقد تم تخديرهم بشعارات الوطنية كما يقول الراوي العليم، وكان كل من يتخلّف عن ذلك النداء الوطني خائن أو جبان، كل تلك الشعارات تبددت في نفوسهم ونفدت مع المعاملة السيئة داخل الجيش.

لا تكتفي الرواية بنقد أطماع الحكام على لسان الراوي، بل نقدت أيضًا المنتفعين من رجال الأعمال من هذه الحرب، فبينما يعاني الراوي هو ورفاقه من المرض والهزال والتغذية السيئة على الجبهة، كان أصحاب المصانع في ألمانيا يحققون الأرباح ويكدسون الثروات، يسقط الراوي نفسه قتيلًا في نهاية الرواية، ولم يتم ذكره في التقرير الحربي الذي لم يأت فيه سوى بضع كلمات: «كل شيء هادئ على الجبهة الغربية»

تميّزت الرواية بسرعة أحداثها، وتتابع السرد، وبسلاسة الحوار، صحيح ليس هناك عمق كبير في وصف الأماكن، لكن كان هناك ما هو أهم وهو الولوج إلى نفسية أبطال العمل بشكل ممتاز.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول..

انتهت نوبتجيتنا بالأمس، فقررنا الذهاب للاستراحة الواقعة على بعد خمسة أميال وراء ميدان القتال.. كانت بطوننا تمتلئ حتى التخمة، وقد نام كل منا قرير العين مطمئن البال، فقد تم تزويد كل منا بنصيب زائد من الفاصوليا والخبز والسجق لوجبة العشاء، وهو رخاء لم نعتده أو حتى نحلم به منذ فترة طويلة!

العجيب أن الطاهي كان يترجانا أن نأكل، فكان يلوح بمغرفته لكل جندي يمر من أمامه، فيفاجئه بسخاء غير معتاد في الطعام..

ذهب إليه كل من «جادن» و»موللر» بطبقين كبيرين، فملأهما حتى قمتهما، فاحتفظا بهما كخزين احتياطي للطوارئ!

يفعل «جادن» هذا من باب الشراهة فقط، في حين يفعله «موللر» من باب بُعد النظر.. لكن الذي يحيرنا هو أين تذهب كل تلك الكميات التي يفترسها «جادن» فيملأ بها جوفه؟فهو نحيف كالعود، ولم يتغير عن هذا الوصف يومًا!

ما يلفت النظر أكثر من هذا هو عدد السجائر التي تم توزيعها علينا، فقد أخذ كل واحد منا ثلاثون سيجارة، وهو ما لم يحدث من قبل!

يجب أن أعترف أن كل هذه الكميات كانت حظًا حسنًا، فلولا خطأ في التقدير والحساب، لما كانت من نصيبنا..

ذهبنا منذ أُسبوعين لميدان القتال لكي نحل مكان زملائنا في الصفوف الأمامية ونعطيهم الفرصة لينالوا قسطًا من الراحة، واستمر السكون ضيفًا على الخندق الذي حلت به كتيبتنا، فلم يستهدف الموت أحدنا.. لهذا أمر ضابط المؤونة، والذي ظل بالمؤخرة، أن يتم إعداد الطعام للكتيبة المكونة من مائة وخمسين فردًا.. لكننا فوجئنا في اليوم الأخير بالمدافع الإنجليزية الثقيلة وهي تنهال علينا بقذائفها بلا توقف، حتى كبدتنا خسائرًا هائلة!

بعد هذا الهجوم، لم يعد باقيًا منا إلا ثمانون رجلًا فقط يصلحون لحمل الأسلحة!

تراجعنا في الليلة السابقة، وعندما وصلنا لمقر الكتيبة ذهبنا لننال قسطًا من النوم الحقيقي، فنحن لم نكد نذوق للنوم طعمًا طيلة وجودنا بميدان القتال، والذي استمر لأربعة عشر يومًا!

حينما زحف طليعتنا من فراشه، كان الظهر قد حل، وخلال نصف ساعة كنا قد تجمعنا جميعًا أمام المطبخ، والذي فاحت منه روائح شهية تسيل اللعاب، وطبعًا كان كل منا يحمل طبقه!

كان أشدنا جوعًا من يقفون في مقدمة الصف، وأقصد بهم «ألبرت كروب» الصغير، وهو أشدنا مهارة فيما يتعلق بمسائل العقل والتفكير، و»موللر» الذي كان لا يزال يحمل معه كتبه الدراسية، فقد كان يحلم دومًا بالامتحانات، لدرجة أنه أثناء إمطارنا بالقنابل يردد نظريات الطبيعة، ولا أنسي طبعًا ذكر «لير» ذو اللحية الكاملة الذي يميل للفتيات اللاتي اتخذهن الضباط عشيقات، ورابع فريق الجياع هذا كان أنا، كاتب هذه السطور، وأدعي «بول بومر»،

ونحن الأربعة نبلغ التاسعة عشرة من عمرنا، وقد تطوعنا جميعًا للانضمام لصفوف الجيش من فصل واحد بمدرسة واحدة..

تلانا في الصف أربعة أصدقاء آخرين، أولهم «جادن»، وهو حداد من نفس عمرنا نحيل الجسد كما سلف أن ذكرت، وهو أشد الموجودين بالغرفة ضراوة تجاه الطعام، فتراه يجلس للأكل هزيلًا كالجرادة، فإذا قام كان منتفخًا كالقربة.. وثانيهم هو «هاي ديسيتوس»، وهو حطاب يمسك برغيف الخبز في يديه فيقول:

- خمنوا ماذا يوجد في يدي؟

وثالثهم هو «ديترنج»، وهو فلاح لا يفكر إلا في مزرعته وزوجته، أما رابعهم هو «كات»، زعيمنا جميعًا بلا منازع، فهو رجل في الأربعين من عمره، ذكي، ماكر شديد المراس وكثير التجارب، أسمر الوجه وأزرق العينين، ذو كتفين مقوسين، وله أنف غريب.. كان بوسعه التنبؤ بالطقس، والوصول لمخابئ الطعام!

كانت عصابتنا الصغيرة في مقدمة الصف الواقف أمام المطبخ، وبدأنا نتذمر لأن الطاهي لم يعرنا انتباهًا..

أخيرًا ناداه «كات» قائلًا:

- افتح مطعم الشعب يا «هنريخ» ! لقد نضجت الفاصوليا منذ فترة!

ثم هز رأسه كأنه لا يزال نائمًا، مُردفًا:

- يجب علينا أن نصل جميعًا لمقدمة الصف!

أجابه «جادن»:

- نحن بالفعل في مقدمة الصف!

لم يعبأ الطاهي بنا، وبقي متجاهلًا إيانا فقال:

- أنت تتحدث عن نفسك، لكن أين هم الباقون؟

- لن ينالوا شرف التهام طعامك اليوم للأسف، فهم إما في عنبر الجراحة، أو يتناولون طعامهم بالفعل في الجنة!

فزع الطاهي عندما استوعب ما حدث، فترنح هاتفًا:

- لكنني أعددت الطعام لمائة وخمسين رجلًا!

دفعه «كروب» في صدره قائلاً:

- إذن سننال ما يكفينا من طعام لأول مرة في التاريخ.. تفضل، اغرف!

طافت رؤية أمام مخيلة «جادن» الفَجِع فجأة، فتلألأت ملامح وجهه، وضاقت عيناه في مكر، وارتجف فكاه، قبل أن يهمس في صوت خشن:

- إذن فلا بُد أن عندك خبزًا يكفي لمائة وخمسون رجلًا، أليس كذلك؟

أومأ له الطاهي برأسه إيجابًا وهو شارد الذهن حائر العقل، فأمسك به «جادن» من سترته وهتف:

- ولديك سجقٌ بتلك الكمية، أليس كذلك؟

أومأ الطاهي برأسه إيجابًا ثانية، فاستطرد «جادن» وقد ارتجف أنفه الحساس:

- وسجائرٌ؟

- نعم! كل شيء!

هتف «جادن» متهلل الوجه:

- يالها من وليمة لنا فقط! سيكون لكل رجل منا نصيب مضاعف!

لكن الطاهي صدمه بتعليقه:

- لا يمكن!

تملّكنا الانفعال، فتجمعنا حول الطاهي، وقال «كات»:

- ولم لا يمكن يا وجه الجزرة؟

لا يمكن أن يأخذ ثمانون رجلًا نصيب مائة وخمسين!

زمجر «موللر»:

- نحن سنريك كيف يمكن هذا!

تمسك الطاهي برأيه مجيبًا:

- ممكن أن أفعل هذا بالفاصوليا لأنها لا تهمني، لكن مستحيل أن أفعل هذا بباقي الأصناف! كل واحد منكم سينال نصيبه المعتاد من باقي الأشياء!

هتف «كات» غاضبًا:

- فلتكن سخيًا يا رجل ولو لمرة واحدة في حياتك!أنت لم تقم بتحضير الطعام لثمانين رجلًا، وإنما قمت بتحضيره للكتيبة الثانية، ومادام الأمر كذلك، فكل ما جهزته من نصيبنا، فنحن نمثل الكتيبة الثانية كلها!

أخذنا نحاول أن نقنع الطاهي، الذي لم نكن نحمل له ودًا مفقودًا، فقد كان الطعام يصل إلينا في ميدان القتال باردًا متأخرًا بسببه! كما لم يكن يرضى أن يتقدم بأدواته تحت قصف القنابل، فكان المُكلفون بتوزيع الطعام يضطرون لقطع مسافات أطول من تلك التي يقطعها زملاؤهم من أفراد الكتائب الأخرى، ولست أظلم الطاهي الخاص بأقوالي هذه، فإن «بولك»، الطاهي الخاص بالكتيبة الأولى، يقوم بنصب أدواته على مسافة قريبة من خط النيران على الرغم من بدانته!

كنا محقين باحتجاجنا هذا، وكاد الموقف يتطور للأسوأ لولا حضور قائد الكتيبة الذي فهم موضوع النزاع فقال:

- نعم، لقد أصابتنا خسائر جسيمة بالأمس!

ثم تفقد إناء الفصوليا وأردف:

- تبدو جيدة..

أومأ الطاهي المدعو «جينجر» برأسه مجيبًا عليه:

- لقد طهوتها باللحم والسمن!

تطلع الضابط إلينا، فأدرك ما كان يجول برؤوسنا، وفهم نقاطًا أخرى لا تحتاج لتفسير.. كان قد التحق بالكتيبة برتبة صف ضابط، وسرعان ما ارتقى في مناصبها.. هكذا رفع غطاء الإناء ثانية وتشمم محتوياته قبل أن يقول:

- جهز لي طبقًا مملوءًا، وقم بتوزيع كل الكمية الموجودة عندك، فنحن بحاجة لكل ما لديك!

ظهرت على وجه «جينجر» علامات الانكسار والخنوع، بينما أخذ «جادن» يرقص من حوله هاتفًا:

- لن تخسر شيئًا، فمخزن المؤونة ليس ملكك! والآن نفذ ما سمعت من أوامر سريعًا دون تأخير!

أجابه «جينجر» وهو يبصق على الأرض:

- اذهب للجحيم!

كان «جينجر» إذا خرجت الأمور من بين يديه يفقد أعصابه فلا يبالي بالعواقب.. وكأنه يريد أن يبين لنا أن كل شيءيتساوي لديه، قد قام بالتبرع بمحض إرادته ليمنح كل منا نصف رطل من العسل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان يومًا بديعًا ممتعًا، فقد وصل البريد، وحصل كل جندي منا على نصيبه من الخطابات والجرائد..أخذنا نتمشي بين المروج التي امتدت وراء المعسكر، وقد أمسك «كروب» بغطاء برميل..

إلي يمين المروج انتصبت مجموعة من المراحيض العمومية المصفوفة، التي يستخدمها المتطوعون الجدد الذين لم يكتسبوا ما يكفي من خبرة تجعلهم يستفيدون مما يصادفونه في طريقهم، أما القدماء المتمرسين أمثالنا فكانوا يتطلعون لما هو أفضل..

لهذا السبب انتشرت في أنحاء تلك المروج صناديق منفصلة لكل واحد منها مقعد مريح نظيف، ولكل واحد من هذه الصناديق مقبض يمكن به أن يتم نقلها من مكان لآخر.. قمنا بنقل ثلاثة من تلك الصناديق فوضعناها في دائرة وجلسنا في راحة تامة..

أذكر أننا أثناء ذلك الموقف كنا مرتبكين للغاية حينما استخدمنا المراحيض العمومية في أول عهد لنا بالتطوع في الخدمة، فلم يكن بهذه المراحيض أبواب تفصلها، وجلسنا، حوالي عشرون شابًا جنبًا لجنب كأننا جالسين بمركبة قطار، ظاهرين للعيان، فإن الجنود يجب أن يكونوا تحت المراقبة طيلة الوقت!

ومنذ ذلك الوقت مررنا بالعديد من الاختبارات التي جعلتنا نطرح ما كان عندنا من خجل جانبًا، فلم نعد نبالي بتلك التفاهات، فقد مرت بنا أوقات شهدنا فيها من الأهوال والمصائب ما جعل تلك الأمور تتضاءل في نظرنا..

الحقيقة أننا صرنا نجد في أداء هذا الأمر في الهواء الطلق نوعًا من الاستمتاع، ولم أعد أفهم كيف كنا نخجل منها بالماضي، فهي بالواقع أمور طبيعية كالطعام والشراب، وكان ممكنًا ألا نبالي بها على الإطلاق لولا أننا هولنا من قيمتها في بداية الأمر بداخل عقولنا، أما الآن فقد صارت في نظر القدامى منا من قبيل العادات المألوفة التي تحدث طيلة الوقت..

يعتبر الجندي أكثر شخص يتصل بمسائل المعدة والأمعاء وما يتصل بهم، ومعظم كلامه يدور حول تلك الأمور، فيرددها في حالات السرور أو الغضب باستمرار، ومن المستحيل أن يقوم بالتعبير عن مشاعره بغير تلك الوسيلة.. لاريب أن أهلنا ومدرسينا سيرتعبون إذا عدنا إليهم بهذا المحصول، لكن تلك هي اللغة العالمية في ميادين القتال.. الساعات التي نقضيها في تلك الجلسات ممتعة، فالسماء الزرقاء تعلونا، بينما تسبح بالأفق مناطيد المراقبة التي انعكست فوقها أشعة الشمس، بينما تنبعث سحب الدخان البيضاء الصغيرة من قنابل المدافع المضادة للطائرات فتنثني في السماء، على حين لا يصل لنا من دوي صوت مدافع ميادين القتال إلا صوتًا باهتًا مكتومًا كأنه صوت رعد بعيد، بينما المروج المزهرة منبسطة من حولنا، والفراشات البيضاء تحوم حولنا على أجنحة هواء الصيف المنعش..

جلسنا نطالع ما وصلنا من خطابات وصحف مستمتعين بهذا الجو الجميل، وقد أشعلنا سجائرنا، وخلعنا قلانسنا فوضعناها على الأرض قربنا، فأخذت نسمات الهواء تعبث بشعرنا مُداعبة خواطرنا وأفكارنا..

وضعنا غطاء البرميل فوق رُكبنا، فصار كطاولة لا بأس بها، وأخذنا نلعب الورق الذي أحضره «كروب» معه..

كنا نتوقف عن اللعب بين الحين والآخر، ونستسلم للصمت السائد.. فقد كان كل منا يشعر أحيانًا داخل نفسه بضيق أو توتر، دون الحاجة للتعبير عن تلك الحالة التي تعتريه، فقد كانت ظاهرة يلمسها كل منا بنفسه.. فكان ممكنًا ألا تجلس تلك الجلسة اليوم.. مرت بنا لحظات كان الموت فيها كسيف مسلط على رقابنا!

لهذا كان كل شيءجميلًا في نظرنا، بدءًا من الطعام اللذيذ الذي تناولناه، وحتى السجائر الفاخرة التي دخناها، ومن نسيم الهواء العليل من حولنا، للطبيعة المشرقة التي تحيط بنا..

قال «كروب»:

- هل رأي أحدكم «همريخ» مؤخرًا؟

أجابه «موللر» أنه قد أصيب بجرح بالغ في فخذه أجبره على دخول مستشفى «سانت جوزيف»..

اتفقنا جميعًا على زيارته عند العصر..

أخرج «كروب» رسالة من جيبه قائلًا:

- معلمنا «كانتوريك» يرسل إليكم جميعًا بتحياته..

ضحكنا، وقال «موللر» وهو يلقي بسيجارته:

- ليته كان هنا معنا!

«كانتوريك» هذا كان ناظر مدرستنا، وهو رجل ضئيل الجسد ذو وجه يشبه الفئران، وشديد الصرامة! يكاد يشابه الأنباشي المخيف «هيملستوس» في الحجم، ومن العجيب أن شقاء العالم يكون غالبًا على يد ضئال الأجساد هؤلاء، الذين غالبًا ما يكونون أشد نشاطًا وأصلب عوداً من ضخام الأجساد، لهذا كنت كثيرًا ما أبذل قصارى جهدي لتفادي العمل تحت إمرة مثل هؤلاء المديرون ضئيلو الجسد!

حَاضَرنا «كانتوريك» أثناء الألعاب الرياضية عن أهمية التطوع في الجيش، حيث ذهب فصلنا كاملًا تحت قيادة «كانتوري» لمكتب القائد المحلي لنتطوع، أراه الآن في خيالي وهو يتفرس فينا من وراء نظارته قائلًا في تأثر:

- هلا تطوعتم في الجيش يا رفاق؟

كان بيننا زميل تردد في الموضوع فلم يحب الانضمام للجيش، ويدعي «جوزيف بيهم»، فقد كان مخلوقًا وديعًا مسالمًا، لكنه امتثل في النهاية لكي لا يرميه أحدهم بالجبن ويتم نبذه من المجتمع.. ربما كان كثيرون منا أصلًا يشاطرونه رغبته ومشاعره هذه، لكن أحدًا منا لم يقو على تحمل النتائج، فقد كانت لفظة «جبان» جاهزة على كل لسان في ذلك الوقت، حتى ألسنة الآباء والأمهات، ولم يكن يخطر ببال أحد أي شيء عن حقيقة ذلك العالم الذي نساق إليه، العقلاء الوحيدون الذين كانوا يعرفون هم الفقراء والسُذج، لأنهم كانوا يعرفون أي بلاء ونكبة في تلك الحروب، بينما الأغنياء، والذين من المفترض أنهم أكثر إدراكًا للحقائق، قد كانوا أسوأهم طرًا، فقد استخفهم الطرب وأعماهم الفرح!

علل «كات» تلك الظاهرة بكونها ناتجة عن التنشئة التي تجعل أمثال هؤلاء باردين متبلدي المشاعر والإدراك..

العجيب أن «جوزيف بيهم» كان أول من لقي حتفه في الجبهة، فقد أصيب أثناء الهجوم في عينيه واضطررنا لتركه وراءنا ليموت دون أن نتمكن من حمله معنا، إذ تقهقرنا للخلف دون نظام، وعند العصر سمعناه ينادينا، وشاهدناه وهو يزحف هائمًا ضالًا.. ونظرًا لأنه كان قد فقد بصره وعقله مما واجهه، فقد عجز عن الاحتماء من مرمي القنابل، وهكذا قضي عليه مقذوفًا قبل أن تواتي أحدنا الفرصة للذهاب إليه ونجدته!

ليس بوسعنا أن نلوم «كانوتريك» طبعًا على هذا المصير، فلو كان كل إنسان يحاسب على ما يفعل، لصار عالمنا اليوم في مكان آخر تمامًا! وفي الواقع، هناك الآلاف من أمثال «كانتوريك» هذا، الذين يكونون في أشد الثقة من كونهم يصنعون الخير، بطريقة لا تكلفهم شيئًا، بينما هم يقذفون بنا لهذا المصير!

كان واجبهم أن يكونوا مرشدين للصغار أمثالنا لعالم البالغين وما فيه من جد وواجب وثقافة وتقدم، أو بعبارة أخرى كان يجدر بهم أن يأخذوا بأيدينا للمستقبل، فصحيح أننا كنا أحيانًا نسخر منهم أو نداعبهم، إلا أننا كنا نثق بهم في أعماقنا.. اقترنت السيطرة والمسئولية التي

يمثلونها في عقولنا ببعد نظرهم وعلو شعورهم الإنساني.. لكن سرعان ما تهاوى هذا المعتقد في داخلنا حينما رأينا مصرع أول واحد فينا، فأدركنا أن جيلنا أحق بأن يكون محل ثقة من جيلهم الغابر.. كانوا يفوقوننا في البراعة وتزيين الكلمات فقط، لكن أول غارة حدثت أمامنا أزالت الغشاوة من على عيوننا فأظهرت لها خطأ تفكيرنا السابق، وعندما زال هذا التفكير تهاوت أركان العالم الخيالي الذي صوروه لنا!

كنا نشاهد الجرحى والقتلى أمامنا في الوقت الذي ينطلقون فيه بالكتابة والحديث.. وبينما كانوا يقومون بتلقين الناس عن كون واجبهم تجاه أوطانهم هو أعظم شيء بالحياة، كنا ندرك أن سكرات الموت أعظم وأقوى!

لم نكن متمردين أو متخلفين عن صفوف الجيش أو جبناء بالرغم من كل هذا، وما أكثر تلك الكلمات التي كانوا على أتم الاستعداد لإلقائنا بها لو أظهرنا ما بدواخلنا!

حبنا لوطننا لا يقل عن حبهم له، وكنا نواجه الخطوب والمصاعب بقلوب ثابتة لا تتزحزح، لكننا كنا قادرين على تمييز الحقيقي من المزيف، وانزاحت عن عيوننا الغشاوة فجأة، فصرنا نرى الحقيقة جلية ظاهرة، ورأينا أنه لم يعد هناك حجرًا باقيًا من عالمهم فوق حجر، فقد أصبحنا فجأة وسط وحشة هائلة مروعة، ولم يكن هناك بُد من السير في ذلك الطريق حتى نهايته بمفردنا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جمعنا أدوات «كمريخ» قبل ذهابنا إليه، فلابد أنه سيحتاج إليها عند عودته..

وجدنا المستشفى يموج بالحركة، بينما تصاعدت روائح تافنيك والصديد والعرق في أنحائه كالعادة.. وبالرغم من كوننا قد ألفنا كثيرًا من الروائح في الثكنات والميادين، فإن الروائح التي هاجمت أنوفنا في ذلك المستشفى كادت أن تفقدنا وعينا!

ذهبنا إلى حيث يوجد «كمريخ»، فوجدناه يرقد في حجرة صغيرة نظيفة، واستقبلنا في فرح خالطه الانفعال، فقد سُرقت منه ساعته أثناء غيبوبته.. لوح «موللر» بيده هاتفًا:

- نصحتك دومًا ألا تحمل مثل تلك الساعة الثمينة!

بدا «موللر» في هذا الموقف باردًا متبلد المشاعر، فقد كان واضحًا أن «كمريخ» لن يغادر مكانه هذا، وسواء وجد ساعته أو لم يجدها، فلن يتسبب هذا في تغيير شيء مما حدث، وأقصى ما يمكن أن يحدث لو وجد أحدهم تلك الساعة أن يردها لصاحبها لو تمكن من العثور عليه..

استفسر «كروب»:

- كيف حالك الآن يا «فرانز»؟

غاصت رأس «كمريخ» داخل الوسادة وهو يجيب:

- جيد، لكن هناك ألمًا شديدًا في ساقي يكاد يدفعني للجنون!

نظرنا إلى الغطاء الموجود على نصفه السفلي، لنرى ساقه وقد اعتلاها سلكًا محدبًا مرفوع، يعلوه الغطاء.. كاد «موللر» بغبائه المعتاد أن يفشي ل. «كمريخ» بما علمناه من الممرض بالخارج عن كون ساق «كمريخ» قد تم بترها، فركلته في عقبه بعنف!

بدا «كمريخ» متقلص ملامح الوجه شاحب اللون، وقد ارتسمت على وجهه تلك العلامات التي رأيناها على وجه الكثيرين من قبله!

لم تعد الحياة تختلج أسفل جلده، وإنما صار الموت هو صاحب الكلمة العليا بعدما تسلل أسفل عظامه فتدفق من عينيه.. كان «كمريخ» منذ فترة بسيطة يجلس القرفصاء معنا في الخنادق، يتسلى بشوي لحم الخيول، لكن ها هو ذا الآن راقد في فراشه بلا حراك!

هو نفس الجسد، لكنه بدا كشخص آخر!

شخص على أعتاب القبر!

تذكرت وقت ذهابنا معًا للميدان، بينما تودعه أم طيبة القلب بالمحطة، كانت تبكي بلا توقف حتى تورم وجهها، فارتبك «كمريخ» من حالها، فقد كانت أقل الموجودين تمالكًا لأعصابها..عندما رأتني تمسكت بذراعي بين يديها وأخذت تتوسل لي أن أهتم بأمر «فرانز» في الجبهة، والواقع أن وجهه كان يبدو كوجوه الأطفال فعلًا، وحتى عظامه كانت هشة حتى أدماها شهر واحد من حمل عتاد الجندي المعتاد، لكن كيف يمكن لأي شخص أن يهتم لأمر آخر في الجبهة؟

قال «كروب» لرفيقنا الجريح:

- سوف تعود لمنزلك قريبًا، لولا هذا الحادث لاضطررت لانتظار ما يقرب من الأربعة شهور قبل أن تتمكن من الظفر بأجازة..

وافقه «كمريخ»، أما أنا فلم أتمكن من النظر ليديه اللتين بدتا شاحبتين كالشمع، في حين ظهرت قذارة الخنادق أسفل أظافرهما كمزيج سام من اللون الأسود والأزرق!

انحني «موللر» فوقه هاتفًا:

- لقد أحضرنا أدواتك معنا يا رفيق!

أشار «كمريخ» بيده طالبًا منه وضعها أسفل فراشه، فنفذ «موللر» طلبه، بينما أبدي «كمريخ» انزعاجه ثانية لموضوع فقد ساعته الأثيرة، فانتابتنا الحيرة غير عارفين كيف نقوم بتهدئته دون أن نثير شكه فيما ينتظره من مصير!

خرج «موللر» من أسفل الفراش وهو يحمل حذاء طيار من نوع إنجليزي دقيق الصنع، ذا جلد خفيف أصفر يرتفع حتى الركبتين، وكان حذاءً فاخرًا يشتهيه أي جندي!

أبدي «موللر» إعجابه الشديد بالحذاء، وأخذ يقارن بينه وبين حذاءه الخشن هاتفًا:

- هل ستأخذه معك «فرانز» ؟

دارت بعقول ثلاثتنا فكرة واحدة مفاداها أنه لو حدث وشفي رفيقنا المسكين، وهو شيء مستبعد، فلن يستخدم غير فردة واحدة من هذا الحذاء، لهذا لن يفيده هذا الحذاء بشيء.. أما لو حدث ما نتوقعه، فمن المؤسف أن يبقي مثل هذا الحذاء في مكانه حيث يمكن أن يستولي عليه خدم المستشفى بمجرد أن يلفظ «كمريخ» أنفاسه الأخيرة!

قال «موللر»:

- ألا تحب أن تترك هذا الحذاء معنا يا «فرانز» ؟

لم يوافق «كمريخ»، فقد كان ذلك الحذاء من أعز ممتلكاته وأقربها إلى قلبه.. استطرد «موللر» غير قابل بالهزيمة:

- لا بأس، ربما تحب أن تقايضه بشيء آخر، هو حذاء لا يمكن الانتفاع به هنا.

لكن «كمريخ» ظل مصممًا على رفضه..دهست قدم «موللر» بحذائي، فأعاد الحذاء الجميل كارهًا لمكانه أسفل الفراش!

تبادلنا الحديث لوهلة، قبل أن نستأذن في الانصراف، بعد أن وعدته بمعاودته في الصباح، وفعل «موللر» مثلي، فلابد أنه يفكر في الحذاء،وهو يعني كل كلمة قالها..

بدا «كمريخ» يتألم متوجعًا، وهاجمته الحمى، فاستوقفنا أحد الممرضين الموجودين بالخارج، طالبين منه أن يعطي «كمريخ» حقنة مخدرة ليتمكن من الظفر ببعض النوم، لكن الممرض رفض ممتعضًا:

- لو أعطينا كل من يتأوه منهم حقنة لتوجب أن يكون لدينا براميل ممتلئة بها!

قاطعه «كروب» في غلظة:

- أنتم تولون كل عنايتكم للضباط إذن!

تدخلت سريعًا وأعطيت الممرض سيجارة، فقبلها.. سألته:

- هل يتم السماح لكم عادة بإعطاء هذه الحقن من الأصل؟

أجاب متذمرًا:

- لماذ تسأل مادام هذا رأيك؟

دسست في يده بضعة سجائر أخرى هامسًا:

- أرجوك أن تصنع لنا هذا المعروف إذن، فصديقنا يتألم للغاية..

تناولهم مجيبًا:

- حسنًا، كما تشاء..

رافقه «كروب» لداخل الغرفة، فلم يكن يثق به، ورغب في أن يراه بعينيه وهو يعطي «كمريخ» الحقنة، بينما انتظرنا نحن بالخارج..

عاد «موللر» لفتح موضوع الحذاء قائلًا:

- إنه على مقاسي بالضبط! أتظنه سيعيش حتى بعد نهاية التدريب؟ لو مات أثناء الليل، فيذهب الحذاء ل..

عاد «كروب» في هذه اللحظة فقال:

- أتظنون أن؟

أجابه «موللر» بثقة:

- إنه في حكم المنتهي يا زميلي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رجعنا لأكواخنا، وظللت أفكر في الرسالة التي سيتحتم عليّ أن أكتبها غدًا لوالدة «كمريخ»، فتجمدت الدماء في عروقي من ثقل تلك المهمة!

انتزع «موللر» بعض الحشائش وأخذ يتسلى بمضغها، بينما قذف «كروب» بسيجارته للأرض ودهسها بوحشية، وهو يتطلع من حوله محطم الحواس ذاهب البال، مغمغمًا:

- تبًا لهذه الحياة اللعينة!

كانت تلك من النوبات التي اعتدناها، ومالبث «كروب» أن استرد هدوءه بعد قليل فسأله «موللر»:

- ماذا قال «كانتوريك» في رسالته لك؟

ضحك «كروب» مجيبًا:

- قال أننا الشباب الحديدي!

ابتسم الاثنان في مرارة..

هذه هي نظرة «كانتوريك» والكثيرين غيره للموضوع..

الشباب الحديدي!

لم يكد معظمنا يتجاوز العشرينات من عمرنا، لكن هل نحن شباب حقًا كما يقولون؟

كان هذا بالماضي البعيد، أما الآن فقد شبنا وأنشبت الشيخوخة مخالبها في أرواحنا!

الفصل الثاني

العجيب أنني تركت بدرج مكتبي في منزلي بعض القصائد التي كنت قد بدأت في كتابتها، ومعها الفصول الأولى من رواية تمثيلية كنت قد بدأت فيها كذلك..

كنت قد أمضيت العديد من الليالي في كتابتها وتدبيجها، وقد فعل الكثيرون مثلي في شبابهم، لكن صار كل هذا في نظري خيالًا، وانقطعت بيني وبين الماضي كل صلة كانت موجودة، فقد بترت حياتنا المبكرة منذ وطئت أقدامنا ميدان القتال، دون أن يكون لنا يد في بترها.. كثيرًا ما حاولنا أن نلقي نظرة على حياتنا الماضية، وأن نجد تفسيرًا لما أصابنا، لكن لم ننجح في هذا..

كل شيء صار ضبابيًا في نظرنا نحن شباب العشرين، الذين يدعوهم «كانتوريك» ب.» الشباب الحديدي» ! الذين يكبروننا بالعمر لا يزال لهم اتصال بحياتهم الماضية، فلهم زوجات وأبناء ومشاغل، ولهم حضن في ماضيهم ذلك يلجأون إليه، ولا يمكن للحرب أن تدمر معالمه!

أما نحن شباب العشرين فليس لنا سوى آباءنا وأمهاتنا، وبعضنا له خطيبة، لكن للأسف لا يعول كثيرًا على هذه الصلات، فسلطان الأبوة والأمومة يتضاءل في هذه السن، وليس للفتيات على نفوسنا تأثيرًا قويًا، ولدينا فوق كل هذا حماسة الشباب، وبعض الهوايات، ومدارسنا.. لكن حياتنا لا تتعدي هذا بأي شكل من الأشكال، ولم يعد حتى يبقي منها شيء!

يمكن ل. «كانتوريك» أن يقول أننا كنا نقف على أعتاب الحياة، وهو شيء صحيح، فشجرة حياتنا لم تتأصل بعد، وقد أتت الحرب فاكتسحتنا وطوحت بنا.. فالحرب لا تعدو كونها فترة انقطاع بالنسبة لمن يكبروننا بالسن، وبوسعهم أن يفكروا فيما يليها، أما بالنسبة لنا، فقد أطبقت الحرب فكيها علينا دون أن ندري ماذا تكون نهايتها، وكل ما ندركه هو أننا قد تحولنا في لمح البصر فأصبحنا كأرض جدباء جافة. ولكن هذه الصورة السوداوية لا تساورنا طيلة الوقت على أية حال..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بالرغم من أن «موللر» يبتهج لفكرة الاستيلاء على حذاء «كمريخ»، فهو لا يقل في عطفه على «كنريخ» أو حزنًا لمصيره عن أيّ واحد منا. لكن مشكلة «موللر» أنه يرى الأمور على حقيقتها المجردة، فلو كانت حالة «كمريخ» تسمح له باستخدام الحذاء، لفضل «موللر» أن يسير حافي القدمين على الأسلاك الشائكة، على أن يضع الخطط والتدابير للاستيلاء على حذاء رفيقه.. الواقع أن ظروف «كمريخ» الحالية جعلت الحذاء بلا نفع له، وكل النفع ل. «موللر»..

لم يعد لدينا شك في قرب وفاة «كمريخ»، ومادام لن يهم بعد هذا من يحظي بالحذاء، فلم لا يكون» موللر» من يفعل؟ فهو أحق به من خدم المستشفى على الأقل! ولو حدث وتوفي «كمريخ»، ستضيع هذه الفرصة، وكان هذا هو مصدر اهتمام «موللر» الزائد ومراقبته الدائمة للموقف!

لم نعد نفكر في الاعتبارات الأخرى، لأنها صارت في نظرنا تافهة سطحية.. وحدها الحقائق هي التي تهمنا، والأحذية الجيدة الصنع تعتبر شيء نادر في وقت الحروب!

لم يكن تفكيرنا كذلك بالماضي، وإنما كان على العكس تمامًا، فحينما ذهبنا لمكتب القائد المحلي للتطوع، كنا فصلًا كاملًا كل أفراده في العشرين من عمرهم، وقد تأنق معظمنا في حلاقة ذقونهم قبل الذهاب للثكنات لأول مرة..

لم تكن لدينا وقتها خطة محددة للمستقبل، وكان كل ما يملأ عقولنا وقتها هو أفكار مبهمة تضفي على الحرب والحياة لونًا من الخيال الصرف، فلما أمضينا عشرة أسابيع بالجيش للتدريب، اكتسبنا خلال تلك الفترة ما لم نكتسبه في الدراسة بالمدارس خلال عشر سنوات..

عرفنا أن كون أزرار زيك لامعة لهو أهم من أربع مجلدات من فلسفة «شوبنهاور»..

فهمنا أن ما يمثل الأهمية الحقيقية ليس العقل، بل طلاء الحذاء!

ليس الذكاء، بل النظام!

ليس الحرية، وإنما التدريب العسكري!

صحيح أننا شعرنا بالدهشة بالبداية، بل وشعرنا بالمرارة، لكن انتهى بنا الأمر في النهاية للاستسلام وعدم المبالاة!

أصبحنا جنودًا متحمسين متلهفين، لكنهم بذلوا أقصى ما لديهم من جهد لقتل كل تلك المشاعر في نفوسنا!

لم نستغرب أنه بعد مرور ثلاثة أسابيع علينا، أن ساعي البريد قد صار له من السلطة علينا ما لم يكن لدى أباءنا ومعلمينا وثمار فلاسفتنا!

كنا نظن أن الحال سيكون غير هذا، فوجدنا أننا يتم تدريبنا على الوطنية، كما يتدرب اللاعبون على المباريات!

لكننا تعودنا على هذه الأشياء سريعًا، وتطبعنا بها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تفرق أفراد صفنا الدراسي بين جميع الطوابير في نواحي معسكر التدريب، مع الصيادين، الفلاحين، العمال، وغيرهم.. سرعان ما اندمجنا معهم فصرنا أصدقاء، وذهب أربعتنا، «كروب»، «موللر»، «كمريخ»، وأنا، لطابور٩، تحت قيادة الأنباشي «هملستوتس»، الذي كان معروفًا بكونه أشد المدربين صرامة بالمكان، وكان هو فخورًا بهذه السمعة فيما يبدو..

كان قصيرًا مفتول الشارب، يخدم في الجيش منذ اثني عشر عامًا، وكان يعمل قبلها كساعي بريد.. كان يحقد على «كروب» و»جادن» و «ديستوس» وأنا، لأننا تحديناه تحديًا هادئًا صامتًا، فتعرضنا لبطشه وإنتقامه، فقام في صباح أحد الأيام بجعلي أرتب فراشه أربعة عشر مرة، وفي كل مرة كان يجد فيه عيبًا جديدًا يوجب تفكيكي للفراش وإعادة نصبه من جديد..

وفي موقف آخر أمرني أن أقوم بتليين حذاءٍ صلبٍ كالحديد من عهود ما قبل التاريخ، فقضيت في تلك المهمة الكريهة نحو عشرون ساعة، حتى صار الحذاء طريًا كقطعة من اللحم..

وفي موقف ثالث أمرني بكنس إحدى الغرف بفرشاة أسنان!

وفي مرة رابعة أمرني أنا و»كروب» بكسح الجليد من فناء الثكنات مستخدمين مكنسة عادية،

فنفذنا الأمر، وقد كدنا نتجمد بردًا لولا مرور أحد الضباط عفوًا، فأمرنا بالتوقف عما نفعل، ثم انطلق ينهر «هيملستوس» بشدة على فعلته الدنيئة!

لكن هذا تسبب في زيادة كراهية «هيملستوس» لنا، فجعل دوري في الحراسة يوم الأحد، ولمدة ستة أسابيع متوالية، وكان يجبرني على إرتداء ملابس الجبهة كاملة وأن أمر فوق حقل محروث تم ريه منذ قليل، لأتدرب على الهجوم والزحف، حتى صرت بالنهاية كتلة متحركة من الطين، وتعثرت فسقطت في الوحل.. ولا تكاد تمر أربع ساعات حتى يكون واجبًا عليّ أن أذهب إلى «هيملستوس» نظيفًا مهندم الثياب، ففعلت، لكنني ذهبت له مخدوش الجلد دامي اليدين!

ذات يوم أمرني أنا و»كروب» و»جادن» و»دييستوس» بوقوف الوقفة العسكرية المعروفة تحت ويلات الصقيع الذي ينخر الأجساد، دون أن نحمل قفازات، لمدة ربع ساعة، بينما أخذ «هيملستوس» يراقب أقل حركة تصدر عن أصابع يدنا وهي متسمرة على خزان البنادق الفولاذي!

في موقف آخر أمرني أن أجري لثماني مرات من أعلى الثكنات إلى الفناء، في الساعة الثانية صباحًا، دون أن أرتدي شيئًا غير قميصي، كعقاب لي لأن أدراج دولابي قد برزت عن الحد المسموح به بمقدار ثلاث بوصات! بل إن «هيملستوس» كان يجري بجانبي ويدوس بحذاءه على قدماي الحافيتين!

وأثناء التدريب الخاص باستعمال «السونكي»، كان على أن أقاتل «هيملستوس» دومًا، وكنت وقتها أتدرب بسونكي مصنوع من الخشب الخفيف، فكان ينهال به على ذراعي بحجة التمرينات، حتى تورم لحمي وتحول لونه للأزرق الممتزج بالسواد!

الواقع أنني فقدت أعصابي مرة فهجمت عليه ولطمته لطمة عنيفة في بطنه، فأوقعته أرضًا! وعندما تقدم بالشكوى لقائد الكتيبة ضحك منه ونصحه أن يتنبه بالمستقبل ويفتح عينيه، فقد كان القائد يفهم طبيعة «هيملستوس» النارية جيدًا، وكان واضحًا أنه كان سعيدًا بما فعلته به!

لكن لحسن حظي أني تفوقت في الحركات العسكرية، فلم أعطه الفرصة ليثأر مني، وبالرغم من أننا كنا نرتجف لمجرد سماع صوته يتردد بالمكان، إلا أننا لم نسمح له بالانتصار علينا في يوم من الأيام!

ذات يوم من أيام الأحد، وبينما كنت أحمل مع «كروب» دلوًا من دلاء المراحيض، معلقًا في حامل أمسك كل منا أحد أطرافه، مر بنا «هيملستوس» وقد بدا في أتم وجاهته استعدادًا للخروج، لكنه بمجرد رؤيتنا حتى وقف أمامنا ليعترض طريقنا ويسألنا عن رأينا في أعمال الجيش!

لم نستطع تمالك أنفسنا من سكب محتويات الدلو فوق ساقيه بالخطأ..

وهنا هاج «هيملستوس» وفقد أعصابه، فصرخ بعلو صوته:

- سوف تذهبان للسجن!

لكن «كروب» لم يتمالك نفسه، فأجابه ببرود:

- لابد أولًا من تحقيق!

صرخ «هيملستوس» في وجينا:

- انتبه كيف تخاطب صف الضابط! هل فقدت عقلك؟ اخرس حتى تُسأل، ثم تكلم بعد هذا! هل تدرك ماذا سيكون مصيريكما؟

أجابه «كروب» بهدوء:

- سنفضحك، ونسرد كل أفعالك السوداء معنا!

أدرك «هيملستوس» أننا سننفذ هذا التهديد فعلًا، فصمت، وابتعد دون كلمة، على أنه زمجر وهو ينسحب قائلًا:

- ستشربان من هذا أيها القذران!

وكان هذا الحادث نقطة نهاية سيطرة «هيملستوس» علينا،فعندما أمرنا ذات مرة بالقيام بتدريبات الزحف والهجوم في الحقل المحروث والمروي حديثًا، أخذنا نقوم بالحركات في تباطؤ حتى أثرنا جنونه..

كنا نركع على ركبنا في حذر، ونلمس الأرض بأيدينا، وأثناء ذلك كان الغيظ ينهش «هيملستوس» فيُصدر أمرًا آخرًا، وكانت النتيجة أن صوته قد بُح تمامًا قبل أن نشعر حتى بالتعب، أو يسيل منا العرق.. من لحظتها قرر «هبملستوس» أن يتركنا في سلام.. صحيح أنه كان يلقبنا أحيانًا بالخنازير، إلا أن نبرات صوته كانت تشف عن الاحترام والتقدير..

كان هناك الكثيرين من رتبة «هيملستوس»، لكنهم جميعًا كانوا أفضل منه في التعامل، لكن على الرغم من هذا، كانوا جميعًا يهتمون لإظهار سلطتهم وسطوتهم، ولم يكن يتاح هذا لهم إلا على المتطوعين!

استمرينا في التمرينات العسكرية في ميدان التدريب، فمارسنا مختلف الأنواع منها، حتى بلغ احتمالنا نهايته! مرض الكثيرون منا فلزموا فراشهم بسبب شدة التمرينات وقسوتها، حتى أن أحد رفاقنا، وكان اسمه «وولف»، توفي بالتهاب في الرئة!

بالرغم من هذا صرنا أصلب عوًدا وأقسى نفوسًا، والأهم، أشد شراسة مما كنا عليه من قبل!

كان هذا ما نحتاج إليه في الواقع، فلو أننا ذهبنا لخنادق الحرب دون تلك التدريبات الصارمة لفقد الكثيرون منا عقولهم!

قامت فترة التدريب تلك بإعدادنا لما ينتظرنا، فلم تنحل قوانا، بل صقلتها، لتسمح لنا بالاندماج في تلك الحالة الجديدة، وكان شبابنا هو خير معين لنا على احتمال ما نمر به، وتولدت في نفوسنا من بين براثن تلك الظروف روحًا قوية كانت أعظم ما أنجبته تلك الحرب، وهي روح الصداقة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بالقرب من فراش «كمريخ» جلست، لأجد أن حالته تزداد سوءًا بلا شك!

كان الهرج على أشده من حولنا، فقد وصل قطارٌ خاص، فأخذ رجال المستشفى ينتقون الجرحى

الذين تسمح حالتهم بنقلهم لميادين القتال! مر طبيب قرب فراش «كمريخ» دون أن يلقي عليه ولو نظرة واحدة حتى، فقلت له:

- سيحين دورك في المرة القادمة يا «فرانز»!

اتكأ الفتى على مرفقيه وحاول رفع نفسه قائلًا:

- لقد بتروا ساقي!

لقد عرف الحقيقة!

أومأت برأسي إيجابًا قبل أن أردف:

- فلنحمد الله على وصولك لهذه الحالة، فربما حدث ما هو أسوأ!

لم يتفوه بكلمة، فأكملت:

- ربما كنت فقدت ساقيك الاثنتان يا «فرانز»، فقد فقد «فوجلر» ساعده الأيمن، وحالته أسوأ منك بمراحل، بالإضافة لهذا ستعود لمنزلك..

تطلع إلى صامتًا للحظة، قبل أن يقول في مرارة:

- أتظن هذا حقًا؟

- طبعًا!

كرر سؤاله:

- أتظن هذا حقًا؟

- طبعًا يا «فرانز»، مادامت هذه العملية قد نجحت فأظن أن...

قاطعني بإشارته أن أنحني فوقه، وعندما فعلت همس لي:

- أما أنا فلا أظن!

- لا تقول مثل هذا الكلام يا «فرانز»، سترى بنفسك النتيجة خلال يومين.. وما الذي حدث لك على أية حال؟ ساق مبتورة؟، إنهم هنا يقومون بإجراء عمليات أشد خطورة من هذه!

رفع إحدى يديه قائلًا:

- انظر لأصابعي!

- هذه نتيجة العملية التي خضعت لها يا رفيق! كُلْ جيدًا فقط وسترى أنك ستسترد عافيتك في أسرع وقت.. هل يعتنون بك هنا جيدًا؟

أشار إلى طبق لا يزال ممتلئًا بالطعام، فهتفت في انفعال:

- يجب أن تأكل يا «فرانز» ! فالطعام ضرورة لازمة لتحسن حالتك!

أدار رأسه للجانب الآخر، وبعد صمت قصير قال ببطء:

- لطالما أردت أن أصبح ضابطًا من حرس الغابات في يومٍ ما..

هتفت في ثقة:

- لا تزال الفرصة أمامك! هناك أعضاءٌ صناعية تجعل الشخص لا يكاد يشعر بأنه ينقصه شيء! فيمكن للمرء أن يحرك أصابعه، ويعمل ويكتب بيد صناعية.. وفوق هذا، فالآمال معقودة على ترقي تلك الفنون وتقدمها!

تمدد ساكناً لبضع لحظات، قبل أن يتمتم:

-يمكنك أن تأخذ حذائي ل. «موللر» !

أومأت برأسي صامتًا وقد عجزت عن الكلام..

تهدلت شفتاه، اتسع فمه لتبرز أسنانه بيضاء كالثلج، وذاب لحمه، لتبرز جبهته وعظام وجنتيه، قبل أن تغور عيناه!

ولم تنقضِ ساعة إلا وكان قد رحل!

لم يكن أول من يحدث له هذا، لكننا نشأنا معًا، وهو ما أعطي للموقف بُعدًا آخرًا!كنت أقتبس من موضوعاته الإنشائية، وكان من أذكى رفاقنا وأنبغهم، وكان السيد «كانتوريك» فخورًا به!

نظرت للأسفل نحو حذائي، فوجدته ضخمًا مضحكًا، وقد اندس «التزلك» تحت طرفيه، فكنا نبدو لمن ينظر إلينا أننا أشداء أقوياء الأجساد، لكن بمجرد أن نتجه للاستحمام وننضو عنا ملابسنا وأحذيتنا، حتى نظهر على حقيقتنا بأقدامنا النحيلة وأكتافنا الضئيلة!

لم يكن يظهر علينا أنا جنود في تلك الحالة، بل كنا وقتها أقرب للصبيان، ولو رآنا أحدهم وقتها لما صدق أننا نقدر على حمل عتاد الجنود..

كان منظرنا حينما نتجرد من ثيابنا يدعو للتعجب، وإذا شرع «فرانز كمريخ» في الاستحمام، بدا نحيلًا هزيلًا كالأطفال!

لكن ها هو ذا راقد ممدد أمامي الآن!

لكم تمنيت لو طاف العالم برمته حول فراشه ليقول:

- ها هو «فرانز كمريخ» ابن العشرين، والذي لم يرغب في ملاقاة الموت! فلينقذه الرب!

اضطربت خواطري وأفكاري، وقد شعرت بكل ما يحيط بي يكتم أنفاسي بروائح ثقيلة..

سرعان ما ساد الظلام، ورفع «كمريخ» رأسه من فوق وسادته، وقد التمع وجهه الشاحب، ولاحظت أن فمه يرتجف، فدنوت منه لأسمعه يهمس:

- لو عثرت على ساعتي، فابعث بها إلى أمي!

لم أقو على اجابته، فقد شعرت أنه من العبث أن أتكلم.. فليس هنا من سبيل لمواساة من هو في موقفه!

ها هو أمامي وقد غارت وجنتيه، وبدا فمه مكشوف الأسنان، وظهر أنفه البارز..

ولا يزال هناك أم ثكلى باكية يتوجب علي أن أقوم بالكتابة إليها!

يالها من مهمة شنيعة.. ليتني قمت بها من قبل!

انطلق خدم المستشفى رائحين غادين وهم يحملون الزجاجات والأربطة،واقترب أحدهم من فراش «كمريخ»، فألقى بنظرة عليه دون أن يقول شيئًا، ففهمت أنه ينتظر إخلاء الفراش!

انحنيت فوقه وانطلقت أتحدث معه وكأنما هذا الكلام سينقذه من ذلك المصير الذي ينتظره، فقلت:

- ربما ستذهب يا «فرانز» لمستشفى النقاهة ببلدتنا «كلوستربيرج»، حيث ستطل من نافذة غرفتك على الحقول اليانعة والأشجار الفارعة.. نحن الآن في أجمل الفصول، وقد بدأت سنابل القمح في النضوج، لتبدو الحقول أثناء الليل متلألئة مبهرة تحت ضوء القمر الساجي.. هناك ستتمكن من صيد الفراشات والأسماك، وسيصبح بوسعك التنزه في هذا الجو الساحر!

انحنيت فوق وجهه الغارق في الظلام، فوجدته لا يزال يتنفس، بينما تبلل وجهه بالكامل من البكاء.. كنت أقصد تشجيعه بكلماتي الحمقاء، لكن ما حدث هو العكس تمامًا، فقد أثارت حزنه وشجونه!

وضعت ذراعي حول كتفه، وقربت وجهي من وجهه، وهمست:

- يجب أن تنام الآن يارفيقي، اتفقنا؟

لم يجب، بينما استمرت دموعه تسيل على خديه لتغني عن أي إجابة.. أردت أن أمسح دموعه بمنديلي، لكنني وجدت المنديل شديد القذارة..

مرت بنا ساعة على هذا الحال، لم أتحرك من مكاني خلالها، بل بقيت أراقب حركاته في انتظار أن يتفوه بكلمة، لكنه لم يفعل.. بل ظل يبكي، وقد أدار وجهه بعيدًا عني..

لم يتحدث عن أمه أو إخوته أو أخواته.. لم يقل شيئًا.. أعطي كل هذا ظهره، وقد أصبح الآن وحده أمام حياته، التي لم تتجاوز العشرين عامًا، والتي يبكي فراقها..

لم أر بحياتي ما هو أشد رهبة وهول من هذا الوداع!

اللهم إلا الموقف الرهيب الآخر الذي رأيت فيه «تدجين» وهو ينادي أمه نداءً مخيفًا وحشيًا، وقد انتصب جالسًا في فراشه جاحظ العينين مرعوبًا، وأبعد الطبيب عنه بخنجر كان يحمله في يده، وظل هكذا حتى تهاوى مفارقًا الحياة!

وفجأة بدأ «كمريخ» يتألم ويتحشرج..

وثبت من مكاني، وسرت متعثرًا وأنا أهتف:

- أين الطبيب؟ أين الطبيب؟

رأيت طبيبًا أمامي، فتشبثت به هاتفًا:

- أسرع! «فرانز كمريخ» ! سيموت!

خلص الطبيب نفسه مني وهو يسأل ممرضًا واقف بالقرب منه:

- أين هذا؟

أجابه الممرض:

- سرير ٢٦.. فخذ مبتور..

قال الطبيب:

- وكيف من المفترض أن أتذكره بالله عليك.. لقد قمت ببتر خمس سيقان اليوم فقط!

أبعدني عن طريقه وهو يقول للممرض:

- اذهب أنت إليه!

ثم أسرع من خطواته متجهًا لحجرة العمليات..

ارتجف جسدي غضبًا، وسرت بجانب الممرض الذي نظر لي قائلًا:

- هناك عمليات متصلة منذ فجر اليوم.. بلغ عدد الوفيات اليوم فقط ستة عشر حالة، وسيكون صديقك رقم سبعة عشر.. وغالبًا سيصل العدد لعشرون قبل نهاية اليوم!

كدت أفقد الوعي ولم أقو على فعل شيء.. كان من العبث أن ألوم أحدًا، ولواستسلمت لشعوري لتهاويت على الأرض فلا أنهض أبدًا..

اقتربنا من فراش «كمريخ»، فرأيته قد فارق الحياة بالفعل بينما محياه لا يزال مبللًا بدموعه،وعيناه نصف مفتوحتين.. سألني الممرض:

- هل ستأخذ معك متعلقاته؟

أومأت برأسي إيجابًا في صمت، فاستطرد:

- لابد من نقله في الحال، فنحن في حاجة لفراشه.. هناك الكثير من الجرحى الذين يرقدون على الأرض بالخارج!

حملت متعلقات «كمريخ» وانصرفت، وما كدت أبتعد حتى كانوا ينقلون «فرانز» فوق رقعة من المشمع الأبيض!

وجدت في الظلام الموجود بالخارج وفي الهواء خارج المستشفى مفرجًا لأزمتي النفسية.رحت أعب من هواء المساء العليل ملء رئتاي، وأتحسس النسيم على وجهي بحالة لم أعهدها من قبل في نفسي..

أخذت صور الفتيات والحقول النضرة تظهر فجأة في عقلي، وشعرت بحافز يندفع بقدماي فيدفعهما للسير سريعًا حتى وصلت للركض، وكان الجنود يمرون بي فأسمع أصواتهم لكن دون أن أفقه كلمة من كلامهم.. وبدت الأرض مملوءة حيوية وقوة أخذت تتدفق في جسدي من خلال قدماي، وقد بدا قصف المدافع لحظتها بعيدًا كأنه دقات طبول متناغمة.. تحركت أطرافي كلها في خفة ونشاط، وقد أخذت عضلات جسدي تشتد وتقوي، وازدادت سرعة تنفسي

شغفة ولهفة.. حفل الليل من حولي بالحياة.، فشعرت بحياته تنتقل إلى داخلي، وشعرت بجوع أقوى من جوع البطن وحدها.. جوع للحياة والتلهف عليها!

وجدت «موللر» واقفًا أمام الكوخ في إنتظاري، فأعطيته الحذاء، ودخلنا سويًا، وعندما ارتداه وجده يطابق مقاسه تمامًا كأنما قد صنع له..

دس «موللر» يده في متعلقاته قبل أن تخرج منها حاملة قطعة من السجق المحشوة بالمخ فقدمها لي، تلاها بقدح من الشاي الحار ومشروب الروم الدافئ..

الفصل الثالث

وصلت الإمدادات، وأغلقت الثغرات التي تكبدتها كتيبتنا، فاختار الزملاء الجدد أكياس القش التي كانت خالية بداخل الأكواخ، وكان معهم بعض الجنود القدامى، لكن جاء بينهم خمسة وعشرون في الرابعة والثامنة عشرة من عمرهم فأشار «كروب» إليهم قائلًا:

- هل رأيت الأطفال؟

أومأت برأسي إيجابًا في صمت.. واضعين أيدينا داخل جيوبنا، رافعين نحو الهواء الطلق ذقوننا، أخذنا نتفقد أولئك المتطوعين الجدد، شاعرين أننا سبقناهم خبرة وتدريبًا.. انضم «كات» إلينا بعد قليل، فذهبنا إلى حيث وقف القادمون ليتسلموا الكمامات والقهوة، سأل «كات» أحدهم:

- هل مر بك وقت طويل منذ أكلت طعامًا طيبًا؟

قطب الفتى جبينه مجيبًا:

- كل ما تناولناه في الإفطار والغذاء والعشاء هو اللفت!

هز «كات» رأسه هزة العارف الخبير الذي مر بهذا من قبل وقال:

- أعرف، لكنكم سعداء الحظ ولا شك، هل تحب أن تظفر ببعض الفاصوليا يا فتي؟

- هل تسخر مني؟

أجابه «كات»:

- هات طبقك واتبعني!

تبعنا «كات» في فضول، فذهب بنا لإناء كبير موضوع قرب فراشه يمتلئ إلى نصفه بالفاصوليا، ووقف «كات» أمام إنائه كالقائد المنتصر.. صعقت، ولم أستطع منع نفسي من سؤاله:

- كيف استطعت إحضار كل هذا؟

- أعطاني «جنجير» اللعين تلك الكمية مقابل ثلاثة قطع من حرير الصواريخ المعلقة، ويجب أن أقول لكم يا رفاق أن طعم الفاصوليا الباردة لذيذ لدرجة لا تتخيلونها!

وضع بعض الفاصوليا في طبق الصبي، وقال له:

- عندما تأتي المرة القادمة ومعك طبقك في يد، فلا تنسى أن يكون معك سيجارة في اليد الأخرى..

بعدها التفت إلينا مستطردًا:

- أما أنتم فعلى الرحب والسعة طبعًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن بوسعنا الاستغناء عن «كات»، فقد كان عنده ما يشبه الحاسة السادسة.. كان قبل

الحرب يعمل إسكافيًا، لكنه كان يمتلك خبرة جيدة في كل أنواع الحرف، فعرفنا أن صداقته مكسبًا للمرء، فجمعت الصداقة بيني أنا وهو و»كروب»، يلينا في المنزلة «هاي ديستوس»، الذي كان ساعد «كات» وذراعه المنفذة..

ذات ليلة وصلنا لبقعة مقفرة، فأوينا لمصنع مهجور، كانت كل الأسرة الموجودة فيه عبارة عن عارضتين خشبيتين، تتوسطهما شبكة من السلك، فكان من الصعب النوم فوقها، وعندما وجد «كات» أن النوم في هذا المكان مستحيل؛ حتى طلب من «ديستوس» اتباعه، وذهب كلاهما للاستكشاف، فعادا بعد مُضي نصف ساعة حاملين الكثير من القش، فقد وجد «كات» إسطبل خيول يمتلئ بهذا القش، فلم يتردد في حمله إلينا. كان بوسعنا أن ننام بعد هذا لولا صراخ بطوننا من الجوع الذي منع النوم من أن يجد إلينا سبيلًا!

التفت «كات» لأحد جنود المدفعية، والذي كان قد أقام في تلك الجهة منذ فترة فسأله:

- هل يوجد مقصف بالقرب من هنا؟

ضحك الجندي مجيبًا على تساؤله:

- مقصف؟ سامحك الله يا رفيق! لا يوجد شيء هنا على الإطلاق! ولو عثرت على لقمة خبز جافة ستكون سعيد الحظ!

- ألا يوجد أي سكان هنا؟

بصق الجندي مجيبًا:

- بل يوجد، لكنهم سكان قليلون وكل ما يفعلونه هو أنهم يحومون حول مطبخ الجيش يتسولون!

- ياله من موقف سئ! ليس أمامنا إذن إلا أن نشد الأحزمة على بطوننا وننتظر قدوم الصباح.

لكنني وجدت» كات» يضع قلنسوته على رأسه، فسألته:

- إلي أين أنت ذاهب؟

قال وهو يخرج من المكان:

- سأذهب لاستكشاف المكان..

ابتسم الجندي ساخرًا وهو يقول:

- اذهب واستكشف، لكن لا تجهد نفسك كثيرًا في حمل ما ستجده!

تمددنا مكاننا موجوعين، وقد خطر ببالنا القيام بهجوم على مخزن المؤونة، لكنها ستكون مجازفة خطيرة، لهذا حاولنا أن نقتنص بعض النوم.. قسم «كروب» سيجارته لنصفين أعطاني أحدهما، بينما أخذ «جادن» يتسلى بوصف طبقه المفضل في المنزل.. لكن صوتًا ارتفع أنه سيحطم فك «كروب» لو لم يخرس! هنا ساد السكون على الحجرة الفسيحة، لا يعكره غير صوت جندي المدفعية الذي أخذ يتسلى بالبصق بين الحين والآخر.. وبينما نحن بين الحلم واليقظة، انفتح الباب ليظهر «كات» من خلفه، فتخيلت أني أحلم، فقد رأيت «كات» يدخل

حاملًا تحت إبطه رغيفين من الخبز، وكيسًا مملوءًا بلحم الخيل، الذي لا تزال الدماء تتقاطر منه!

تحسس جندي المدفعية رغيفي الخبز بيديه هاتفًا:

- ياللسماء.. خبز حقيقي! وساخن كذلك!

لم يفسر لنا «كات» ما فعله ليحضر كل هذا، فالمهم أنه أحضره، فتوجه بحديثه لـ «ديستوس» آمرًا:

- اقطع بعض الخشب!

بعدما أخرج «كات» من تحت سترته مقلاة، ومن جيبه بعض الملح وقطعة من الدهن، فقد كان بعيد النظر لا يفرط في شيء يقع أمامه، سرعان ما كان «ديستوس» قد أشعل بعض النار على الأرض، فأضاءت جنبات الغرفة الخالية، وفي اللحظة التالية كنا قد تركنا أسرتنا، فلم ننم تلك الليلة إلا وكانت بطوننا قد امتلأت.. هكذا هو «كات»، بوسعه الوصول لمكان الطعام بوحي من غريزته وحدها، فيسير إليه رأسًا كأنما يتبع بوصلة تحدد طريقه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلسنا نتجاذب أطراف الحديث خارج الكوخ، وقد جلس «كات» بجانبي، بينما راح «كروب» يسير حولنا حافي القدمين بعد أن قام بغسل جواربه وقام بنشرها على الحشائش لتجف..أخذ الاثنان يتناقشان، فتراهنا على زجاجة من الجعة على نتيجة معركة جوية دارت فوق رءوسنا..

كان الرأي الذي أدلي به «كروب» غريبًا يستحق التدوين، فقد كان يرى أن إعلان الحرب كان من المفترض أن يأخذ شكل الاحتفالات الشعبية التي يكون لها رسوم للدخول، وتصدح فيها أنغام الموسيقي، كحفلات مصارعة الثيران على سبيل المثال..

ثم يجتمع وزراء الدولتين المتحاربتين وقواتهما في ساحة عامة، وقد ارتدوا ملابس المصارعة، وأمسكوا الهراوات بأيديهم، فيتولون تسوية النزاع فيما بينهم.. ومن يعيش من الفريقين المتصارعين تكون دولته هي المنتصرة، وهي طريقة أبسط وأسهل وأكثر تشبهًا بروح العدالة مما يحدث حاليًا، والذي يجعل أفراد الشعب المظلومين يتحملون أعباء الحرب وويلاتها، ويكونون هدفًا لخسائرها.. سار الحديث في إتجاه آخر بعد هذا، وارتفعت فجأة ضحكات «كروب» وهو يقول:

- هناك تغيير في «لوهن» !

وكان هذا النداء اسمًا للعبة متداوولة يحبها «هيملستوس»، أونباشي فرقتنا الشجاع المقدام، ولهذا قصة سوف أقصها عليكم....

كانت «لوهن» هذه هي النقطة التي تتقاطع عندها خطوط السكك الحديدية، ولكي لا يضل رفاقنا الذاهبون في أجازة طريقهم بتلك المحطة، تولي «هيملستوس» تدريبنا على كيفية التغيير في عنبر الثكنات، فكان المسافر يضطر لاجتياز نفقًا يجري تحت الأرض لكي يصل إلى خط السكة الحديدية الفرعي في محطة «لوهن».. ولهذا شبه «هيملستوس» الأسرة بالنفق المقصود، فوقف كل واحد منا إلى جانب فراشه على أتم استعداد، وبمجرد أن يرتفع صوت

«هيملستوس» مناديًا:

- هناك تغيير في «لوهن» !

حتى يقوم كل جندي بالتسلل تحت فراشه على الفور، ويصل للجانب المقابل، وكنا نقوم بهذا التدريب لساعات كاملة..هزمت في تلك الأثناء الطائرة الألمانية، فهوت في الفضاء يجر ذيلها خيطًا من الدخان الثقيل، فخسر «كروب» الرهان، وأخذ يحصي نقوده متذمرًا، وبعد أن خفت استياء «كروب» هذا قلت:

- -الأكيد أن «هيملستوس» كان مختلفًا في طباعه وأخلاقه في حالته الراهنة عما كانه عندما كان ساعيًا للبريد، ومادام الأمر كذلك، فمن أين اكتسب هذا التطور وهو يؤدي دور االأونباشي في التدريب؟ أثار هذا السؤال اهتمام «كروب»، خصوصًا حين عرف أنه لا يوجد بالمقصف زجاجة جعة يسدد بها قيمة الرهان الذي خسره، فقال:

- ليس هو الوحيد الذي تغير، هناك عشرات غيره، بمجرد أن يظفروا بنيشان أو نجمة ذهبية حتى يتبدل مسلكهم تمامًا!

علقت:

- أكيد... السترة الرسمية هي التي تفعل فيهم هذا!

وافقني «كات»:

- بالضبط، لكنني أعتقد أن هناك سببٌ آخر، ألا وهو السلطة المطلقة التي توجد بنظام جيشنا.. لابد لكل رجل في الجيش أن يتسلط على الآخر، فالضابط مثلًا يتسلط على الصول الذي بدوره يتسلط على من دونه، وهكذا.. وجود مثل تلك السلطة هو ما يبعث الزهو في تلك النفوس فيغريها بالتحكم والإسراف في استغلالها.. لكن هذا النظام موجود عندنا فقط، ولو أرادوا أن يقوموا بتطبيقه في مهن أخرى لحدث ما لا يحمد عقباه.. وكلما كان الشخص كسولًا متراخيًا في حياته المدنية، كلما عظم ظهور هذا التأثير عليه إذا ما التحق بجيشنا!

- لكنهم يقولون أن سيادة النظام هو ما يستدعي وجود تلك الظاهرة..

تذمر «كات»:

- صح،لكن لا يجب إساءة استخدام السلطة حتى تصير مسبة!

لم يعترض أحدنا على كلامه، وهنا جاء «جادن» متورد الوجه لاهث الأنفاس، فقال وقد أشرق وجهه:

- « هيملتسوس» آتي من الجبهة في طريقه لهنا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إن المفترض أن نتجه لميدان القتال في اليوم التالي، فاتفقنا على أن نقوم بتصفية حسابنا مع «هيملستوس» في ذلك المساء!

الواقع أننا أقسمنا منذ عدة أسابيع على القيام بتلك الحركة، بل لقد اقترح «كروب» أن يلتحق بخدمة البريد بعد نهاية الحرب، لكي يصير رئيس «هيملستوس» حينما يعود ساعي بريد كما كان

من قبل، فيذيقه العذاب الذي أذاقه لنا فيسحقه كالذبابة!

كنا نعرف الحانة التي يتردد عليها «هيملستوس» كل ليلة، والتي كان يعود منها للثكنات من طريق مقفر مظلم، فانتظرناه في هذا الطريق وسط الظلام، خلف كومة من الأحجار، وكنت أحمل معي غطاء فِراش، وأخذنا ندعو الله أن يرجع «هيملستوس» وحيدًا!

سمعنا فجأة وقع أقدامه الذي صرنا نحفظه عن ظهر قلب، منذ كان يدفع الباب علينا كل صباح صارخًا:» انهضوا!»

همس» كروب»:

- أهو بمفرده؟

تسللت حول مجموعة الأحجار يرافقني «جادن»، لنرى «هيملستوس» يسير في سعادة ظاهرة، وقد انطلق بالغناء دون أن يرتاب في شيء.. أمسكنا بالغطاء، وقفزنا بسرعة، لنلقي به فوق رأس «هيملستوس»، قبل أن نجذب أطرافه، ليقف الرجل بالنهاية داخل كيس أبيض، عاجزًا حتى عن تحريك ذراعيه.. انقطع غناؤه فجأة،وأسرع «ديستوس» بالوقوف إلى جانبه، فتركناه ليثأر لنفسه أولًا، فوقف وقد بدا عليه الرضا والارتياح، ورفع ذراعه، قبل أن يوجه ضربة قوية نحو «هيملستوس» الذي سقط أرضًا من قوة الضربة، قبل أن يتدحرج لبضعة أمتار، فأخذ يصرخ، لكننا كنا قد استعددنا لهذا، فأحضرنا معنا وسادة من الثكنات، فجذبنا رأس «هيملستوس» تحتها، لينقطع صراخه!

أسرع «جادن» بدوره فقام بفك حزام ضحيتنا وجذب بنطاله لأسفل، قبل أن يقوم بجلده بالحزام، فكان مشهدًا عجيبًا،فقد تمدد» هلمستوس» على الأرض، وقد انحنى «ديستوس» فوقه وهو يبتسم ابتسامة شيطانية، واندس رأس «هيملستوس» في حجره، فأخذ «جادن» ينهال عليه ضربًا دون ملل، حتى اضطررنا أخيرًا من إبعاده عنه كي يتمكن كل واحد منا من أخذ نصيبه!

بعدها أنهضناه ثانية، ووُجت له ضربة قويةٍ ، صرخ على إثرها ضحيتنا، قبل أن يهوي زاحفًا على يديه وقدميه، وخلال لحظات تركنا ميدان تلك المعركة الغير متكافئة لنتخفي في جنح الظلام..

المفترض أن يفرح مدربنا «هيملستوس» بما حدث، فلطالما كان يخبرنا أنه يجب على كل واحد منا أن يقوم بتعليم زملائه، وها هي نصائحه قد جاءت بنتيجة، فقمنا بتطبيق طريقته معنا بذكاء، كما يفعل كل التلاميذ النجباء!

لم يستطع «هيملستوس» قط التوصل لمن داعبه تلك المداعبة القاسية، لكن على كل حال خرج منها بغطاء فراش، لأننا عندما عدنا للمكان بعد بضع ساعات لنبحث عنه وجدناه قد اختفي دون أي أثر.. الحقيقة أن تلك المداعبة قد شدت من عزيمتنا، فكان لها أطيب أثر في نفوسنا عندما تم ترحيلنا للميدان في صباح اليوم التالي..

الفصل الرابع

تقرر لنا الذهاب لمد مجموعة من الأسلاك الشائكة، فجاءت اللوريات بعد هبوط الظلام، فصعدنا إليها، ووقفنا على أقدامنا بداخلها جنبًا إلى جنب، لعدم توافر مكان آخر للجلوس، وكان «موللر» سعيدًا بحذائه الجديد الذي انتعله يومها.. علت أصوات المحركات، وسارت اللوريات في جنح الظلام تتخبط بنا في الطرق الوعرة التي امتلأت حُفرًا، ولم نجرؤ على إظهار أي نور حتى لا تستهدفنا قنابل الطائرات.. سارت سيارات الذخيرة بمحاذاتنا في خط طويل، فرحنا نتبادل مع ركابها النكات والمداعبات، وبينما نحن نسير وسط ظلام تابع لدار منزل انتصب على جانب الطريق، تناهى لسمعي فجأة صوتًا أثار دهشتي.. أهو صوت أوزة فعلًا؟ أم أن حواسي قد خدعتني؟ لكن الصوت تكرر بجلاء فلم يدع في نفسي أي شك.. تبادلت النظر مع «كات»، ففهم كل منا ما يدور بخلد رفيقه..

همست:

- « كات»، هناك ما يصلح لقليه هنا!

أومأ برأسه مجيبًا:

- أعرف، سنهتم بها عندما نعود، لقد قمت بعدهم!

وصلنا أخيرًا لخطوط المدفعية، حيث احتجبت البطاريات بين الشجيرات لتفادي رؤيتها من الجو.. تشبع الهواء بدخان المدافع والضباب، بينما اندفعت سحب البارود متسللة عبر فتحات الأفواه لتلهب ما بداخلها من ألسن على حين استمر قصف المدافع العنيف حتى اهتز اللوري الثقيل الذي يحملنا، وترددت الأصداء متجاوبة من خلفنا لتزلزل كل شيء من حولنا.

ظهر تأثير كل هذه الأشياء على سيماء وجوهنا، فصحيح أننا لم نصل بعد لميدان القتال، كنا فقط بالصفوف الخلفية، لكن كان من السهل أن يرى المرء تلك السطور المحفورة على وجوهنا:

«هنا الجبهة، وقد صرنا بداخل أحضانه الآن!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن الخوف هو سبب ذلك الاحساس، فمن ألفوا ميدان القتال مثلنا قد غلظت جلودهم وتحجرت قلوبهم، فلم يساور الانفعال من بيننا إلا أولئك المتطوعين الجدد، فانطلق «كات» يشرح لهم ما يجري قائلًا:

- هذا مدفع ١٢ بوصة.. يمكنكم التعرف على صوته من الدويّ الذي يُصاحبه، ستسمعون صوته الآن..

لكن خيب قصف المدفع ظنه فلم يصل إلى آذاننا، فقد تلاشى صوته وسط دويّ الجبهة، فقال «كات» وقد أرهف سمعه:

- سيقوم العدو بإمطارنا بالقنابل هذه الليلة..

أصغنا السمع جميعًا، وكان صوت انفجار القنابل جليًا، خارجًا من بطارية إنجليزية تقع إلى يميننا، وقد بدأوا مهمتم هذه الليلة قبل الموعد المعتاد بساعة كاملة، فقد كانوا يبدأون في المعتاد من العاشرة.. قال «موللر»:

- ماذا حدث لهم؟ لابد وأن ساعاتهم فسدت!

هز» كات» كتفيه مجيبًا:

- سيمطروننا بالقنابل كما سلف وأن أخبرتكم، فأنا أشعر بهذا في عظامي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فتحت المدافع نيرانها صوبنا، لتشق طريقها مخترقة سحب الضباب، ثم تلاها دويّ قصف شديد، لتسري رعدة وحشية داخل أجسادنا.. شكرنا الله في سرنا على عودتنا لأكواخنا عند الفجر.. لم تكن وجوهنا ممتقعة ولا شاحبة، لكن رغم هذا كان هناك تغييرٌ جليٌ واضحٌ علينا، وليس فيما أقوله مبالغة أو تنميق في الكلمات، فمجرد تواجد المرء بين جنبات ميدان القتال يحدث فيه تلك الهزة الكهربائية، فلا تكاد القنابل تُصفر في الهواء ويدوي صوت انفجارها، حتى تتحول لكتلة مرهفة من الحواس والأعصاب، فينتقل الجسد كله في لمح البصر ليصبح في حالة غريبة من التأهب والاستعداد والترقب، وبالرغم من أننا في حالة عادية تتراوح ما بين المرح والاكتئاب، إلا أننا بمجرد أن نسمع دويّ القنابل وطلقات المدافع حتى تعترينا حالة جديدة، فتكتسب الكلمات بالنسبة لنا رنات جديدة مماثلة..

ولو كان «كيت» قد قال عبارته السابقة بالكوخ لما اهتم أحد، أما هنا فقد كان لها على أسماعنا وأفكارنا وقع سيف حاد، وأشعرنا في أعماقنا برعود عنيفة تنهش فينا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا يختلف ميدان القتال في نظري عن كونه دوامة غامضة، وبالرغم من أنني لازلت أنا وزملائي بعيدين عن قلبه المشتعل، إلا أني أشعر بأن تياره يمتصني تدريجيًا فيجذبني إليه بلا هوادة، فالجندي يستمد قوته وجلده في الجبهة من الهواء أعلاه والأرض الموجودة أسفله.. فالأرض بالخصوص تمثل في نظر الجندي كل شيء، فهي له مثل الصديق والأخ والأم، حينما يتمدد فوقها ويحتضنها، وعندما يدفن وجهه وأطرافه بين طياتها، خوفًا من نيران القنابل التي تقتنصنا ببراعة كالموت، بينما في سكونها وصدرها الآمن يقوم بدفن خوفه ويكتم صرخاته فتهيئ له ثواني قليلة تحميه خلالها حتى يتمكن من الفرار بحياته، وإلا تأسره بين طياتها للأبد فيُعد من ضحايا الحرب!

لا يكاد صفير القنابل يشق الفضاء إلا ويكون المرء قد عاد آلآلاف الأعوام للخلف، فالغريزة الحيوانية المختفية أسفل طباعنا تستيقظ فجأة فتحمينا من الهلاك، لا تعتبر الغريزة هي الوعي، بل هي حاسة أخرى أقوى وأرهف إدراكًا، ومن المستحيل أن يصل الإنسان لتفسير لها، فالجندي يمضي في طريقه بلا تفكير أو انتباه، فيرتمي فجأة على الأرض، وإذا بعاصفة من الشظايا تهب من فوقه وحوله دون أن تمسه بسوء، على الرغم من أنه لا يتذكر سماع مرور القنبلة؛ فقد فكر في إلقاء نفسه على الأرض، فلو لم يستجب لذلك الشعور الخفي الذي راوده، لتحول في لمح البصر لكومة مبهمة التفاصيل من العظام واللحم.. فما ألقانا على الأرض لينقذنا من الهلاك هو تلك البصيرة الداخلية فينا، ولولا وجودها لما عاش إنسان واحد ممن وطئت

أقدامهم ميدان القتال!

أكملنا طريقنا متقدمين للأمام، فينا المتفائل وفينا المتشائم، حتى وصلنا للمنطقة التي يبدأ عندها الجبهة فاستحلنا في لحظة لحيوانات بشرية مرهفة الحس.. صادفتنا غابة جدباء في طريقنا، ومررنا بمطبخ الجبهة ثم أخذنا نتقدم في أحضان ظلال الغابة، عادت اللوريات للخطوط الخلفية، على أن تعود لنا عند الفجر لتنقلنا للأكواخ.. نشر كل من الضباب والدخان سحب عالية كست الأرض بغلالة كثيفة، بينما أخذت الفصائل تتقدم في طريقها، وقد لمعت خوذتها في ضوء القمر الفضيّ.. كنا نسير باتجاه الخنادق الأمامية، وقد حمل بعضنا فوق أكتافهم قضبانًا حديدية حادة أو ذات أطراف متلوية، بينما وضع آخرون قضبانًا ملساء في لفائف سلكية، فأخذوا يدحرجونها على الأرض من فرط ثقلها وصعوبة حملها..

ازدادت وعورة الطريق وأخذنا نسمع من حين لآخر أصوات من الأمام، تحذرنا مما أحدثته القنابل من حفر وأخاديد.. حاولنا اختراق الظلام بأنظارنا، وأخذنا نتحسس الأرض بأقدامنا، قبل أن نتقدم للأمام، وفجأة توقف الطابور، فاصطدم وجهي بلفة السلك التي يحملها الجندي الذي يتقدمني بالصف، فشتمته في سري!

اقتربنا من الجبهة فصدرت لنا الأوامر بإطفاء أي سجائر مشتعلة معنا!

وأثناء هذا، تكاثفَ الظلام ودرنا حول غابة صغيرة، فإذا بنا نقف أمام الجبهة مباشرة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتشر وهج أحمر متقطع على امتداد الأفق،في حركة دائمة تصدر عن اللهب المتقطع الذي يتصاعد من أفواه المدافع وماكينات الصواريخ الفرنسية التي ترتفع في الفضاء من حين لآخر، وهي عبارة عن مظلات من الحرير، تسبح في الفضاء نحو دقيقة وقد أضاءت كل ما حولها لدرجة تحويل الليل لنهار، قبل أن يخبو ضوؤها الساطع ليغرق في محيط من النجوم الحمراء والخضراء والبيضاء، قبل أن يسود الظلام الدامس من جديد..

دوّى قصف المدافع مرة واحدة كهزيم الرعد، قبل أن تتفرق الأصوات وقد أخذت المدافع تضرب طلقاتها، كلٍ بمفرده، بينما شقت القنابل الصغيرة الفضاء، سريعة متلاحقة يُصاحبها صفيرٌ وضوضاء، وقد تموج دوي المدافع الثقيلة من خلفها، فبدا بعيدًا عميقًا كأنه زلزال عنيف في باطن الأرض من تحتنا!

اندفعت الأنوار الساطعة تغزو سجادة السماء بالأعلى، قبل أن يوقف أحدها مترددًا للحظة، ثم سرعان ما انضم إليه ثانٍ، وقد انحصرت بينهما حشرة سمراء اللون تحاول الإفلات منهما، وأدركا أنها طائرة، لكنها خلال ثواني معدودة كانت قد أصيبت في جسدها، قبل أن تهوي على الأرض التي فتحت لها ذراعيها في جشع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غرزنا القضبان في الأرض على مساحات متساوية، بينما راح آخرون يقومون بفرد لفائف الأسلاك فينشرونها على تلك القضبان، وقد كانت تلك الأسلاك مصنوعة من نوع مخيف خطر.. فرغنا من تلك العملية خلال بضع ساعات، لكن كان لابد من مرور بضع ساعات أخرى قبل وصول اللوريات، تمدد أغلبنا على الأرض محاولين النوم وقد حاولت تقليدهم لكن اشتداد البرد طرد أي أثر للنوم من عيني، لكنني بالنهاية نجحت في النوم، لكنني استيقظت من النوم

منتفضًا دون أن أعرف مكاني.. رأيت نجوم الصواريخ تضئ الفضاء، حتى تخيلت أني في إحدى الحفلات العامة، ثم سمعت دوي الانفجار القريب الذي جعلني أستعيد حواسي!

رأيت شبح «كات» جالسًا قربي بهدوء يدخن غليونه المطفي، وعندما رآني استيقظت قال:

- لابد أنك فزعت من ذلك الانفجار القريب، لقد انفجرت قنبلة في الغابة المجاورة لنا!

جلستُ شاعرًا بوحشة شديدة، فلحسن الحظ أن «كات» كان بالقرب مني.. رأيته يحدق في فضاء الجبهة مفكرًا للحظة قبل أن يستطرد:

- هذه القذائف الرائعة تشبه الألعاب النارية، لولا أنها أشد خطورة!

انفجرت قنبلة أخرى خلفنا، فوثب بعض المتطوعين الجدد فزعًا.. ما هي إلا دقائق معدودة حتى انفجرت قنبلة ثالثة على مسافة أقرب!

نفض «كات» غليونه هاتفا:

- ها قد بدأ الجد!

جد الجد بالفعل، فقد انهالت القنابل بعد جملته كالأمطار، فأخذنا نزحف بأقصى ما بوسعنا من سرعة.. انفجرت واحدة منها بيننا، فقتلت جنديان، بينما أخذت الصواريخ تشق الظلام نحونا، فأخذ الوحل يتناثر، في حين انطلقت الشظايا تتطاير كالأسهم في كل الاتجاهات.. ولم يتوقف قصف المدافع عن الدوي بين انفجارات القنابل..

رأيت متطوعًا قريبًا مني وقد استولى عليه الرعب الشديد، فدس وجهه بين يديه وسقطت خوذته، فتناولتها سريعًا وحاولت اعادتها لرأسه..تطلع الفتى نحوي، ودفع الخوذة، قبل أن ينسل تحت ابطي كالطفل، ليخفي رأسه في صدري، وأخذ صدره يعلو ويهبط بسرعة!

كان نحيلًا يماثل رفيقي الفقيد «كمريخ»، فتركته يفعل ما فعله، ووضعت الخوذة على عجزه، لا من قبيل السخرية، ولكن لحماية ذلك الجزء الذي يعتبر أعلى أجزاء الجسم، وتكون إصاباته أشدها إيلامًا..

أصابت الشظايا أحد الرفاق إصابة خطيرة، فتصاعدت صرخاته بين دوي الانفجار..

ساد الهدوء أخيرًا، وابتعدت المقذوفات عن مكاننا وأخذت تسقط على الصفوف الخلفية..

جلست مكاني وأخذت أهز أكتاف ذلك المتطوع الصغير هامسًا:

- انتهى الأمر يا بني! نجونا هذه المرة!

نظر الفتى حوله ذاهلًا، فاستطردت:

- ستتعود على هذا قريبا..

رأى خوذته فوضعها على رأسه، وعاد لرشده تدريجيًا، لكن احمر وجهه فجأة وقد بدا عليه الاضطراب، وأخذ يمد يده بحذر نحو مؤخرته، قبل أن ينظر نحوي ملتاعًا..

فهمت على الفور ما حدث.. تأثير المدافع عليه كان شديدًا! طمأنته قائلًا:

- ليس في ما حدث ما يدعو للخجل، فكثيرين قبلك امتلأت بناطيلهم بعد أول غارة تمر بهم، هيا اذهب لتلك الغابة وانزع بنطالك.. هيا أسرع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذهب الفتى، وانقطع سقوط القنابل، لكن الصرخات لم تنقطع، فقلت:

- ماذا حدث يا «ألبرت» ؟

- أصيب بعض الرفاق هناك بإصابات قاتلة..

استمرت الصرخات، ولم تبد كأصوات آدمية، فالإنسان مهما أصابه لا يصرخ بتلك الوحشية. قال «كات» بالنهاية:

- خيول مجروحة!

كان صراخًا عاليًا يمتلئ بعذاب وألم يصمان الآذان، فشحبت وجوهنا، ولم يتمالك «ديترنج» أن نهض هاتفًا:

- يا إلهي! لم لا يطلقون النار عليها ليرحموها!

كان «ديترنج» مزارعًا يحب الجياد ويشفق عليها، فلم تتحمل أعصابه كل ذلك الصراخ، لكن الصوت كان يأتي من كل مكان حولنا، فلم نستطع تحديد مصدره، وعندما اشتد وتعالي، هتف «ديترنج» ثانية:

- أطلقوا عليها النار وارحموها! أطلقوا عليها النار وارحموها! لم لا تفعلون؟ فليلعنكم الله!

قال «كات» بهدوء:

- لابد من العناية بالرجال أولًا يارفيق..

وقفنا محاولين التوصل لمصدر تلك الصرخات، وكان هناك منظارٌ مكبرٌ مع «موللر»، رأينا من خلاله أشباحًا متجمعة، هم رجال يحملون نقالات لحمل الجرحى، ومن حولهم تحركت أشباحًا أخرى هنا وهناك، هي الجياد الجريحة!

عدا بعضها بالجبهة، قبل أن يسقط أرضًا، ثم ينهض ويستأنف الركض، ورأينا حصانًا مفتوح البطن وقد تدلت أمعاؤه، فتعثر فيها وسقط على الأرض، قبل أن ينهض ثانية!

رفع «ديترينج» بندقيته وصوبها نحوه، لكن «كات» جذب ذراعه لأسفل هاتفًا:

- هل جننت؟

ارتعد «ديترنج» للحظات قبل أن يلقي ببندقيته على الأرض..

جلسنا وقد وضعنا أصابعنا في آذاننا، لكن تلك الصرخات الروعة أبت إلا أن تخترق أسماعنا.. لم نستطع صبرًا، فكان لابد وأن ننهض لنبحث عن مصدر تلك الأصوات..على أن الرجال الذين يحملون النقالات أخذوا يصوبون نحو الخيل الجريحة طلقاتهم، فأخذت أشباحها تتساقط واحداً بعد الآخر، لكن الرجال لم يستطيعوا أن ينالوا من الجياد الجريحة التي كانت تجري صارخة من الألم، وما لبث أحد الجند أن ركع على ركبتيه، وصوب بندقيته، سمعنا على أثر هذا

دويّ طلقة، سقط بعدها جواد أرضًا، ثم طلقة ثانية، وهكذا..

بقي آخر الجياد معتمدًا على قائمتيه الأماميتين فقط، وقد هبط عجزه فوق الأرض،وأخذ يدور حول نفسه.. أسرع إليه الجندي وأطلق عليه طلقة جعلته يهوي ببطء على الأرض..

تنفسنا الصعداء، وانقطع الصراخ، وأخذ «ديترنج» « يروح ويجئ من حولنا، وهتف منفعلًا:

- ماذا جنت تلك المخلوقات ليكون هذا مصيرها؟استخدام الخيول في الحرب هو نذالة ما بعدها نذالة!

حان وقت العودة للوريات، فأخذنا نتراجع، وكانت الساعة قد قاربت الثالثة صباحًا، فبدت وجوهنا داكنة في ضوء القمر الشاحب..

اخذنا نسير في صف واحد بين حفر القنابل والخنادق، حتى وصلنا لمنطقة الضباب، وقد بدت علامات القلق على وجه «كات»، فسألته:

- ماذا هناك يا «كات» ؟

- أتمنى لو كنت بتلك الأكواخ الآن!

- سنخرج قريبًا من هذه الفوضي يا «كات».

قال بانفعال:

- لست مطمئنًا! لست مطمئنًا!

وصلنا للحقول المكشوفة، وظهرت الغابة الصغيرة الجدباء من جديد، كنا نعرف كل شبر من الأرض بهذه المنطقة، ومن بينها مقبرة ذات مدافن تمتلئ بصلبان سوداء..

دوى في تلك اللحظة دويّ يصم الآذان، فانبطحنا أرضًا ورأينا سحابة من دخان ونار على بعد زُهاء مائة متر أمامنا.. حدث انفجار ثاني في اللحظة التالية، ورأينا بعده قسمًا من الغابة يرتفع في الفضاء، وشقت الفضاء بضع أشجار ما لبثت أن تناثرت متفرقة الأجزاء، وأخذت المقذوفات تدوي في كل مكان مُصدرة صفيرًا شديدًا..

صاح شخص ما:

- اختفوا! اختفوا!

كانت الحقول منبسطة، والغابة بعيدة عنا، فضلًا عن خطورة اللجوء لها، فلم يكن أمامنا إلا المقبرة والمدافن، فتخبطنا في الظلام متجهين نحوها، وقد التصق كل رجل خلف مدفن منها.. لم نكد نستقر في أماكننا حتى أضاءت المقبرة بشهب المقذوفات المتدافعة نحونا، وحاولت في هذا الضوء أن ألقي نظرة على الحقول.. وجدتها بحر متلاطم من ألسنة اللهيب والمتفجرات، ينتظر الموت على أعتابها لمن يقرر المرور بها!

تلاشت الغابة وقد تدمرت عن آخرها فمُحيت محوًا، ولم يكن هناك مفر من البقاء حيث نحن في تلك المقبرة.. كانت الأرض تتطاير قبل أن تمطرنا بوابل من التراب والحجارة، ثم شعرت بلطمة تضربني!

تمزق كمي إثر شظية طائرة، فتحسست ذراعي متحفزًا، لكنه كان مجرد خدش لحسن الحظ..

دهمتني صدمة فوق جمجمتي، جعلتني أفقد صوابي، لكنني بذلت قصارى جهدى للتماسك لكي لا أستسلم للإغماء، فأخذت أمسح الطين عن وجهي وعيني.. رأيت حفرة ظهرت أمامي فجأة، وتذكرت أن القنابل لا تسقط مرتين في نفس الحفرة، فقررت أن أندس فيها!

زحفت على الأرض كالسمك، وفجاة سمعت صفير قنبلة فانكمشت على نفسي، وأنشبت يدي حولي متلمسًا مخبأ ألجأ إليه، فوجدت شيئًا إلى يساري.. دنوت منه، ولكنه تحرك من مكانه! تأوهت بينما الأرض تتفجر من حولي،والدوي يصم أذناي، زحفت أسفل الجسم المتحرك، وغطيت نفسي به، وجذبته فوقي، فإذا هو خشب وقماش، فياله من حجاب حامي من الشظايا المتناثرة!

فتحت عيني، أمسكت أصابعي كمًا، ثم ذراعًا!

أتراه جريح؟

صرخت مناديًا عليه، لم يجبني، فقد كان ميتًا!

تحسسته بيدي، فوجدت شظايا من الخشب، وتذكرت في تلك اللحظة أننا مختبئون بمقبرة!

سقوط المقذوفات لهو أبشع شيء بالوجود، فهو يذهب بعقلك ويطيشه، ويذهل حواسك فيخربها.. لكنني أخذت أزحف أسفل تابوت الميت، أحاول أن ألتمس فيه حاميًا من الموت، بينما الموت نفسه كامنًا فيه!

كانت الحفرة تفغر فمها أمام عيناي، فقررت أن أندس فيها بوثبة واحدة، لكنني أحسست فجأة بلطمة على وجهي، ويد تتشبث بكتفي، ففكرت في ذعر أن الميت قد استيقظ!

هزتني يد، فأدرت رأسي، ورأيت وجه «كات» بجانبي، وقد بدا فاغر الفم وهو يصرخ..

لم أسمع كلمة مما يقوله، فزحف مقتربًا، ووصل إلى صوته فجأة:

- غاز! غاااز! غاااز! حذرهم!

انتزعت كمامتي الواقية من الغازات المميتة، ورأيت شخصًا على مسافة مني، فلم أفكر في تلك اللحظة إلا في تحذيره، فأخذت أصرخ تجاهه:

- غاااز! غاااز!

ناديته، وانحنيت نحوه، لكنه لم ينتبه لي!

كررت النداء والإشارة، لكن كل ما كان يفعله هو أن يغوص برأسه بين الحين والآخر..كان متطوعًا حديثًا!

نظرت ل «كات» في يأس، فرأيته وقد ارتدي كمامته، وبدأت أشد كمامتي أنا الآخر،وأزحت خوذتي، فانزلقت على وجهي، ووصل للمتطوع، فوضعت يدي على كمامته المعلقة ناحيتي،وجذبتها فوق وجهه، ففهم، وسرعان ما تركته، وانحدرت للحفرة بقفزة وحدة..

امتزجت أصوات قنابل الغاز بدويّ القنابل المفرقعة، وسمعنا صوت ناقوس يدق بين الحين

والآخر، يصاحبه دقات طبول نحاسية تدوي محذرة من الغازات..

انحدر للحفرة شخص آخر خلفي، ثم تبعه شخص ثاني، فمسحت عوينات الكمامة لانظر من خلالها، فميزت «كات» و «كروب» ومعهما شخصٌ آخر، وانكمشنا نحن الأربعة في الانتظار الرهيب الذي تحتبس فيه الانفاس داخل الصدور..

في تلك اللحظة الرهيبة يقف الإنسان يتأرجح بين الحياة والموت، خشية أن يكون القناع غير محكم الوضع، فيتسرب منه الموت ليقتنصه.. تذكرت بتلك اللحظة الزفرات المرعبة التي كانت تنبعث من مرضى الغازات بالمستشفى، والذين يقضون الأيام الاخيرة من حياتهم في اختناق دائم، كلما انتابتهم نوبات من السعال الحاد، بصقوا لحم الرئتين لحمًا داميًا!

تنفست واضعًا فمي على فوهة الصمام، بينما تمددت سحب الغازات المميتة على الأرض، لتتسلل في الحفر المنتشرة، قبل أن تصل لحفرتنا أخيرًا!

وكزت «كات»، مفكرًا أن أفضل حل هو أن نبقي عند سطح الحفرة، لأن الغازات تتراكم في القاع، وما كدنا نفعل هذا حتى هوت علينا القنابل من جديد، وكانت هذه المرة أشد وقعًا!

هوى جسمٌ أسود فجأة علينا بصوت كالرعد، واستقر بالقرب منا.. كان تابوتًا قذفت به القنابل داخل الحفر، وقد أصاب أثناء سقوطه رفيقنا الرابع، فجرحه جرحًا بليغًا في ذراعه!

لم نستطع أن ننطلق لمساعدته، فقد أخذ رأسي يدور داخل الكمامة التي أرتديها، وشعرت أن رأسي يكاد ينفجر، بينما ضاق صدري من استنشاق الهواء المحبوس، وانتفخت أوداجي، وشعرت أنني أكاد أموت مختنقًا!

تسلل ضوء شاحب إلينا، فتسلقت الحفرة ناظرًا فوق حافتها.. رأيت في ضوء الفجر ساقًا مبتورة، قبل أن تقع عيناي على رجل يقف على بعد عدة أمتار، مسحت الضباب الذي تكون على عوينات الكمامة، وشاهدت الرجل بغير قناع. انتظرت للحظات، لم يسقط الرجل، وبقي يتطلع بنظره لما حوله.. سار لبضع خطوات، وسرعان ما خلعت الكمامة عن وجهي، عندما شعرت بحشرجة حلقي.. سقطت أرضًا، فتدفق الهواء لرئتاي كما يتدفق الماء العذب، بينما جحظت عيناي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يحدث شيء آخر، فاتجهت نحو الحفرة ولوحت لرفاقي الباقين بداخلها، فخلعوا كماماتهم، ورفعنا الجريح سويًا، قبل أن نسارع بالابتعاد، فقد صارت المقبرة كومة من الحطام، وقد تناثرت التوابيت والجثث والعظام في أرجائها..

قُتل أولئك الموتى لمرة ثانية اليوم، لكن كل واحد ممن قذفته الغارة منهم قد أنقذ فردًا منا!

رأينا في طريقنا رجلًا ممددًا، فوقفنا، بينما استمر «كروب» وحده في التقدم للأمام، مع زميلنا الذي أصيبت ذراعه.. كان الراقد متطوعًا حديثًا، وقد غطت الدماء فخده، وعندما لاحظت دلائل التعب الشديد عليه ناولته زمزميتي التي أحتفظ فيها ببعض الشاي والروم، وهممت بإعطائه بعض ما فيها.. لكن «كات» جذب ذراعي وانحني فوقه سائلًا:

- أين أصبت يارفيق؟

لم يتفوه بكلمة، وإنما تحركت عيناه فقط في محجريهما، فنزعنا عنه بنطاله في حرص وهو يتأوه بينما نحن نواسيه ونشجعه.. لو كانت الاصابة بمعدته لتوجب ألا يتناول شيئًا على الإطلاق، وكان هذا هو السبب الذي جعل «كات» يمنعني من إسعافه بالشرب، لكننا تشجعنا عندما رأيناه لا يتقيأ ما شربه..

ظهر الفخذ أمانا، فإذا هو كتلة دامية من اللحم والعظام لا تظهر لها تفاصيل، وحتى مفصله تحطم، وهكذا قضي على ذلك البائس ألا يتمكن من السير إلى الأبد!

بللت صدغه، وصببت جرعة من الشراب في فمه، فتحركت عينه ثانية، ولاحظنا في تلك اللحظة ذراعه اليمني المجروحة، وقد سال منها الدم..

فرد «كات» قطعة من القماش لتضميد الجرح، بينما انطلقت أنا أبحث عن شيء ألفه حولهما، لكني لم أجد شيئًا يصلح، فقمت بجذب بنطال الفتى المصاب لكي أنزع قطعة من سرواله الداخلي، لكنني وجدته لا يرتدي شيئًا أسفل بنطاله، فنظرت نحو وجهه لأتفرس فيه، لأجده نفس الفتى الذي احتمي بي منذ قليل!

تمكن «كات» في تلك الأثناء من أخذ ضمادة من جيب جندي ميت، فعصب بها الجرح بعناية، فقلت للفتى الذي نظر نحونا:

- سنذهب لإحضار نقالة..

فتح فمه هامسًا:

- ابقوا هنا معي..

قال «كات»:

- سنعود خلال دقائق، سنذهب فقط لنحضر نقالة لنحملك عليها!

لم نعرف هل فهم ما قلناه أم لا، فقد أخذ يتألم كالأطفال وأخذ يتشبث بملابسي هاتفًا:

- لا تذهبوا وتتركوني!

تطلع «كات» حوله وهمس:

- ألا يجب أن نأخذ مسدسًا ونضع حدًا لما يعانيه؟

كان واضحًا أن الفتى لن يتحمل النقل، ولو تحمله فلن يعيش لأكثر من أيام قليلة، وما أصابه الآن لا شيء لو قارناه بما سيحس به من وجع حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة.. فهو الآن مشلول الأعصاب لا يحس بشئ، وقبل أن تمر ساعة واحدة عليه حتى سيدب الألم ناخرًا كل جزء من جسده؛ ليدوي صراخه ليصم الآذان.. كل يوم سيعيشه سيكون في عذاب أليم، لهذا أومأت برأسي إيجابًا مجيبًا على «كات»:

- نعم.. أظن أننا يجب أن نخلصه من هذا العذاب يا «كات» !

ظللنا متجمدين مكاننا للحظة، وقد استقر عزم «كات» أخيرًا على فعلها، فنظرنا حولنا، لكننا لم نعد وحدنا، فقد ظهر رفاقنا من حفر القنابل، ورأينا النقالات آتية.. استدعينا نقالة منهم وقال

«كات» هازًا رأسه:

- تبًا! يالهم من أطفال أبرياء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خسائرنا كانت أقل من المتوقع، فقد قتل خمسة منا وجرح ثمانية فقط، وكانت تلك الغارة قصيرة الأمد، ورأينا اثنين من القتلى في القبور المنبوشة، فأهلنا عليهما التراب..انطلقنا عائدين، وسرنا صامتين في صف واحد، أحدنا خلف الآخر، وتم حمل الجرحى للمستشفى، وهم يطلقون صرخات العذاب.. وانتشرت السحب بينما تساقطت الأمطار كأنما في سباق..

ازدادت الأمطار غزارة، فأخذنا قطعًا من المشمع، قمنا بفردها فوق رؤوسنا، فأخذ المطر يتساقط منزلقًا من فوقها، لينحدر على جانبها مدرارًا، بيما راحت اللوريات تتخبط في الحفر ونحن نتخبط معها، شبه نائمين من الإرهاق..

ظهر رجلان بمقدمة اللوري الذي يقلنا ومعهما حاملان ذوي أسنان مدببة، وقد اقتصرت مهمتهما على ترقب أسلاك التليفونات المعلقة في مستوى رؤوسنا، حتى لتكاد تطيح بنا، ورفعها في اللحظة الملائمة بالحاملين حتى يبتعد اللوري بأمان.. كنا نسمع نداءهما بين وقت وآخر وهما يحذراننا من الأسلاك، فنقوم بثني ركبنا ونحن بين اليقظة والنوم، قبل أن ننتصب من جديد..

سارت اللوري بنا على هذا النحو الممل، بينما المطر يتساقط منهمرًا فوق رؤؤسنا فوق رؤؤس القتلى في الجبهة، وفوق جسد المتطوع الصغير ذو الجرح الكبير، وفوق قبر «كمريخ»،وكأنه يتساقط فوق قلوبنا!

دوى صوت انفجار في مكان ما فانتبهنا واتسعت حدقات أعيننا، ووضعنا أيدينا على حافة اللوريات، استعدادًا للوثب في الحفر المجاورة للطريق.. لكن لم يحدث شيء، واستمر الزميلان يحذروننا من الأسلاك،واستمرينا نحن ننثني من حين لآخر استجابة لتحذيراتهما، ونحن نكاد نقع في براثن النوم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

من المؤكد أن قتل القمل واحدة وراء الأخرى مهمة متعبة لو كان على المرء أن يقتل المئات منها، فهذه الحشرات الضئيلة صلبة الأجسام، وعملية قتلها بأظافر الأصابع لا تلبث أن تثير الملل والضيق، لهذا أتى «جادن» بعلبة ورنيش فارغة وثبت فيها قطعة سلك، ووضع العلبة فوق لهب شمعة، فسهل علينا القضاء على القمل كله مرة واحدة بوضعه في هذه المقلاة الطريفة.. الحقيقة أننا جلسنا في شبه حلقة حول تلك المقلاة الغريبة، ونزع كل منا قميصه فوضعه فوق ركبتيه فتجردت أجسادنا في الهواء الدافئ، وأخذت أيدينا في العمل بهدوء، كان القمل الذي وجده «هاي ديستوس» في قميصه من نوع غريب.. كانت رؤوسه عليها صلبان حمراء اللون، وقال «ديستوس» عن هذا أنه جاء بهذه السلالة النادرة من مستشفى «تورو «، حيث يستضيفون تلك الحشرات كضيوف معززين مكرمين فوق جسد كبير الجراحين.

قرر «ديستوس» استخدام الدهن الذي كان يتراكم في علبة الورنيش الساخنة في طلاء حذاءه وأخذ يضحك لنصف ساعة كاملة على هذه النكتة!

لم نشاركه الضحك، وكنا منشغلين في التفكير في شيء آخر، فقد تحققت الإشاعة التي سمعناها قبلًا وقد جاء «هيملستوس» للميدان أمس، وسمعنا صوته الذي نعرفه جيدًا، ويبدو أنه أسرف في إجراء التدريبات المعروفة في الحقل المروي المحروث حديثًا بالجبهة مع اثنين من المتطوعين الجدد، ولسوء حظه أن ابن الحاكم كان يراقبه، فافتضح أمره وتم وضع حد لتعسفه!

فكر «جادن» لساعات كاملة فيما سوف يقوله ل. «هيملستوس»، فى حين أخذ «هاي» يحدق في كفيه العريضين ويغمز لي بعينيه، فقد كان الصفع هو إحدى هواياته المفضلة.. وراح كل من» كروب» و»موللر» يتسليان بتخيل ما سوف يحدث..

وبينما نحن على هذا الحال، أثار «موللر» موضوعًا آخر، فأخذ يسأل كل منا عما سيفعله بعد إنتهاء الحرب، أجابه «كات» أنه سيعود لمهنته القديمة كإسكافي، حتى يتمكن من إعالة زوجته وأولاده.. بينما أجابه «هاي» بأنه سيستأنف عمله في الغابات كحطاب، بالرغم من أنه كان يفكر في الاستمرار بخدمة الجيش لاثني عشر عامًا حتى يضمن لنفسه معاشًا يقضي به بقية أيامه في هدوء ورخاء. على حين أجابه جادن» بأنه يفضل الاهتمام بأمر «هيملستوس» أولًا، فإذا نال ثأره منه كما يتخيل ويحب،سيعود لمهنته القديمة كحداد. وقرر «ديترينج» باقتضاب أنه سيعود رأسًا للحقل بمجرد أن يتم تسريحه من الجيش. وعندما وصل الاستفتاء عند هذا الحد، ظهر «هيملستوس»، فقصد هذا إلى ناحيتنا مباشرة، فتورد وجه «جادن» وتمدد على الحشائش وقد أغمض عينيه انفعالًا.. تردد «هملستوس» قليلًا قبل الوصول إلينا قبل أن يحزم رأيه ويدنو منا، فلم يتحرك أحدنا من مكانه أو ينهض لاستقباله كما ينتظر.. أخذ «كروب» يتطلع إليه فاحصًا. وقف» هيملتوس» بضع دقائق أمامنا منتظرًا، وعندما لم ينبس أحد ببنت شفة قال:

- حسنًا؟

مرت ثواني من الصمت، وقد بدا أن «هيملستوس» لا يدري كيف يتصرف..

ولو كان الأمر بيده، لعاد لتعذيبه الماضي لنا، لكن يبدو أنه يعلم أن ميدان القتال يختلف تمامًا عن ميدان التدريب.. لكنه على أية حال جرب تهويشه الماضي لنا متوقعًا أنه إذا خاطب واحد منا بمفرده سيظفر بجواب.. وبما أن «كروب» كان أقرب الموجودين له، فقد بدأه بالحديث قائلًا:

- أنت هنا أيضًا؟

لكن لأن «كروب» لم يكن يحمل له حبًا مفقودًا، فقد أجابه على الفور:

- أنا هنا من قبلك!

ارتجف شاربه في وجهه وهتف:

- ماذا! ألا تعرف من أنا؟

فتح «جادن» عينيه قائلًا:

- أنا أعرفك..

التفت «هيملستوس» ل. «جادن» وقال:

- أهذا «جادن» ؟

رفع ذلك الأخير رأسه قائلًا:

- وهل تعرف من أنت؟

ثار «هيملستوس» فقال:

- ومنذ متى رفعت الكلفة بيننا؟ لا أتذكر أننا نمنا سويًا في مجاري ما..

ثار جنون «جادن» الذي أجابه سريعًا:

- صح، فقد نمت فيها بمفردك!

بدأ «هيملستوس» يغلي من الغيظ لكن «جادن» استمر في هجومه بلا رحمه فاستطرد:

- ألا تريد أن تعرف من أنت؟ أنت مجرد كلب حقير لا أكثر.. كنت أنتظر إبلاغك بهذا منذ زمن طويل!

لمعت عينا «جادن» اغتباطًا لكونه حقق أمنيته الماضية في الثأر من «هيملستوس» وقال وهو يبصق على الأرض:

- كلب حقير!

لم يستطع» هيملستوس» تمالك نفسه، فانفجر حانقًا:

- ما هذه اللهجة التي تكلمني بها يا لص الطعام؟ قف أمامي منتصبًا وضم قدميك حينما يحدثك ضابط أعلى منك رتبة!

لوح «جادن» يده مستخفًا به، وأجابه:

- أهذا أمر؟

صرخ «هيملستوس»:

- نعم أنا آمرك يا «جادن»..قف!

قال «جادن»:

- هل تريد شيئًا آخر؟

صرخ» هيملستوس» فيه:

- هل ستُطيع أمري أم لا؟

أجاب «جادن» على هذا الأمر بجواب غازي صادر من معدته، فصرخ» هيملستوس» وقد اشتد جنونه:

- ستتم محاكمتك محاكمة عسكرية جراء هذا أيها القذر!

توجه» هينلستوس» نحو غرفة القيادة ليختفي عن أنظارنا، بينما انفجر «جادن» بالضحك حتى وقع أرضًا.. لكن «كات» كان قلقًا وقال:

- إذا اشتكاك يا «جادن» سيكون موقفك سيئًا..

أجبت:

- أكيد..

قال «كات»:

- سيتم سجنك لخمسة أيام على الأقل..

قال «جادن» دون تأثر:

- سجن لخمسة أيام معناها الراحة والبعد عن الجبهة،،

نهض «جادن» منصرفًا مع «هاي» و «لير» حتى لا يفاجأ وهو في حالة سعادته الحالية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رجع «موللر» لاستفتائه بخصوص ما سنفعله بعد الحرب، لكننا –الذين كنا طلابًا بالسابق- حرنا في أمرنا فلم ندرِ بما نجيب..هل يمكن أن نعود ثانية لحياة المدرسة وحشو الرأس بمعلومات فارغة كالتي كانوا يصبونها داخل آذاننا، بعد كلما رأيناه وخبرناه في ميدان القتال؟

ولأن «كروب» كان مفكرًا بطبعه، فقد قام بتلخيص الموضوع بقوله:

- كل من «كات» و»ديترينج» يعودان لمهنتما السابقة، لو كانت لهما مهنة حقًا، ومثلهم» هيملستوس»،، أما الطلاب أمثالنا فلم يكن لنا مهنة من الأصل لنعود لها.. وهل يمكن أن نصلح في أي مهنة نحاول أن نمتهنها بعد كل ما خبرناه هنا في الجبهة؟

بدا على «موللر» صاحب الاستفتاء القلق وهو يقول:

- ماذا سيحدث لنا حقًا بعد انتهاء الحرب؟

هز «كروب» كتفيه مجيبًا:

- لا أعرف.. فلنعد أولًا لبيوتنا، ثم نفكر في هذا فيما بعد!

عجزنا جميعًا على أن نعثر على إجابة لهذا السؤال.. قلت:

- ماذا بوسعنا أن نقوم به من أعمال؟

أجاب «كوب» في ملل:

- لا أريد أن أفعل شيئًا.. سنموت جميعًا في إحدى المواقع، فما الذي يهمكم أو يزعجكم؟ لا أظننا سنعود أبدًا!

غمرنا الصمت لفترة، قبل أن أقول أنا وقد استلقيت على ظهري:

- كلما فكرت يا «كروب» في زمن السلام الذي تتحدث عنه، كلما صورت لي نفسي أن أفعل شيئًا لا يتصوره عقل.. عمل يوازي تلك الكارثة التي حلت بنا.. لكنني لا أستطيع التوصل لما أفعله.. كل ما أعرفه هو أن موضوع المهن والدراسة والرواتب هذا كان ولا يزال يثير قرفي وازدرائي.. لم أعد أرى شيئًا يا «كروب» !

في تلك اللحظة، اختلط كل شيء أمام عيناي، فيئست من كل شيء، وساور هذا الشعور «كروب» أيضًا فقال:

- سوف نعاني معاناة شديدة، لكن لا يوجد من يهتم لأمرنا! قضاء عامين أسفل أهوال تلك المدافع والقنابل لهو أمر لا يسهل تناسيه أو التخلص مما له من آثار!

وصل تفكيرنا لكون تلك الأزمة لا تضمنا نحن فقط بين جنباتها، وإنما تضم كذلك كل من في سننا تقريبًا.. حتى وهم يختلفون بهذا الشأن إلى حد ما، لكن ذلك المصير هو مصير جيلنا الحاضر بأكمله!

لخص «كروب» الموضوع بقوله:

- هذه الحرب اللعينة دمرتنا فلم نعد ننفع لشيء!

لم يكذب للأسف، فقد تبخر شبابنا! والحياة قد فارقتنا!

كنا بالثامنة عشرة من عمرنا، وقد بدأنا للتو نحب الحياة من حولنا والعالم الذي يضمنا، فإذا بتلك الحرب اللعينة تجعلنا نمزق تلك الحياة تمزيقًا، ونهشمها بكل قوتنا!

أول القنابل تفجرت داخل قلوبنا، لتنزعنا من عالم التقدم والقوة والنشاط.. لم نعد نصدق تلك المبادئ، وصرنا نؤمن بالحرب فقط!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظهرت علامات الحركة والنشاط بغرفة القيادة، ويبدو أن ل. «هيملستوس» يد في هذا، فقد

خرج من الحجرة جاويش سمين، وقد تبعه «هيملستوس» الذي بدا عليه أنه يتحرق شوقًا لينال ثأره!

نهضنا جميعًا، فسأل الجاويش:

- أين هو «جادن» ؟

لم يعرف أي منا طبعًا، فتفرس «هيملستوس» في وجوهنا غاضبًا..

- أنتم تعرفون مكانه! أنا متأكد! لكنكم لا تريدون الحديث! انطقوا!

نظر الجاويش من حوله باحثًا، لكن لم يبد لـ «جادن» أي أثر، فقال:

- يجب على رفيقكم أن يقدم نفسه خلال عشر دقائق..

بعد هذا ابتعد الاثنان عنا، فهتف «كروب»:

- عندما نذهب للميدان في المرة القادمة لوضع أسلاك شائكة، سأسقط إحدى اللفائف الثقيلة على قدم القذر «هيملستوس» !

ارتفعت ضحكات «موللر» فقال:

- سيكون مادة ثرية لدعاباتنا الفترة القادمة..

كان غرضنا الوحيد هو اقتلاع ذلك الغرور الذي دبت جذوره في رأس «هيملستوس»، فنضع حدًا لعجرفته..

اتجهنا صوب الكوخ، فقمت بتحذير «جادن»، الذي أسرع بالاختفاء، ثم عدت لرفاقي حيث جلسنا نتسلى بلعب الورق، وكأنه لم يحدث شيء منذ لحظات..

بعد نصف ساعة عاد إلينا «هيملستوس»، فلم يعره أحدنا انتباهًا، وعندما سألنا عن «جادن» هز كل واحد منا كتفيه بمعني أننا لا نعرف، فأصر «هيملستوس» على طلبه قائلًا:

- إذن يجب عليكم أن تجدوه.. ألم تذهبوا لتبحثوا عنه؟

تمدد «ألبرت» فوق الحشائش سائلًا:

- هل أتيت هنا قبلًا؟

عنفه «هيملستوس» مجيبًا:

- لا شأن لك! أريد جواباً لسؤالي!

نهض «كروب» وقال:

- حسنًا.. انظر لسحب الدخان الصغيرة التي ظهرت هناك على بعد.. إنها تتصاعد من ميدان القتال، وقد كنا هناك بالأمس، فقتل منا خمسة، وجرح ثمانية.. لكنها نتيجة يسيرة في العموم.. لكن في المرة الثانية حينما تأتي معنا للميدان، سيتقدم لك الرفاق قبل أن يلقوا حتفهم، فيسألونك باحترام وهم يضربون الأرض بأقدامهم: «هل تسمح لنا بالتقدم يا سيدي؟ هل تسمح

لنا بمقابلة الموت؟ لقد انتظرنا من هو مثلك منذ فترة طويلة!

عاد «كروب» للجلوس، فاختفى «هيملسوستوس» فورًا..

لكن تلك المناوشات قد بلغت آخرها، فقد تقرر عقد محاكمة لكل من «جادن» و»كروب»..

تمت دعوتنا في المساء واحدًا بعد الآخر للمثول لدى ضابط الكتيبة الملازم «بريتنك»، فطلب مني كشاهد أن أفسر الأسباب التي دعت «جادن» للتمرد على «هيملستوس»، وهنا أخذت أشرح صنوف التعذيب والاضطهاد التي تفنن «هيملستوس» في ممارستها ضدنا أثناء التدريب، والتي كان يبقي نصيب الأسد منها ل. «جادن».. وقد تطابقت أقوالنا كلنا بخصوص تلك النقاط، كما أن «هيملستوس» لم يجد مفرًا من الاعتراف بهذا عندما قام الضابط بمواجهته بنا.. استفسر» بريتنك» في النهاية:

- ولماذا لم تقوموا بالتبليغ عن تلك الحوادث في وقتها؟

غمرنا جميعًا الصمت، ولم يكن «بريتنك» في حاجة لإجابة، فقد كان يعرف بالفعل قبل غيره عدم جدوى شكوى مرؤوس ضد رئيسه، بالإضافة لكون هذا غير معتاد في صفوف الجيش..

وبعدما أحاط الضابط بملابسات الموقف كاملة، انهال بالتوبيخ على «هيملستوس» وهو يبين له أن ميدان القتال يختلف كل الاختلاف عن ميدان التدريب، وحينما أتى دور «جادن»، قام الضابط بوعظه طويلًا، وبالنهاية حبسه حبسًا مخففًا لمدة ثلاثة أيام، قبل أن يحكم على «كروب» بيوم واحد فقط وهو يقول:

- لا حيلة لي في هذا يا بُني..

والحقيقة أن «بريتنك» هذا كان ضابطًا لطيف المعشر..

كان الحبس المخفف عقوبة هينة، فهو لا يتعدى الحجز في فناء ذو سياج كان قبلًا عشة للدجاج، ولم يتعذر علينا بطرقنا الخاصة أن ننضم لزميلينا، حيث استقبلنا «جادن» وهو يصدر نقيقًا كالدجاج، فبقينا نضحك عليه لخمس دقائق كاملة، ثم جلسنا نلعب الورق حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لما انصرفنا أخيرًا سألني «كات»:

- ما هو رأيك في لحم الأوز المشوي؟

هتفت:

- رائع!

تسلقنا على إحدى مركبات الذخيرة، فلم يكلفنا الأمر إلا سيجارتين كرشوة للسائق، وكان «كات» قد قام بتحديد المكان بخبرته المعهودة.. كانت حظيرة خاصة بالقيادة تم حجز بعض الأوز فيها،وهو الذي سمعنا صوته من قبل.. كانت كائنة خلف الجدار، وذات باب هزيل لا يغلقه إلا وتدٌ خشبيٌ فقط..

اتفقنا أن أحمل الأوزة بنفسي، فتلقيت التعليمات اللازمة، وبمجرد أن وصلنا للجدار المطلوب،

تسلقته بمساعدة من «كات»، وهبطت على الأرض، بينما وقف «كات» ليراقب ويحرس الطريق..

احتجت للحظات حتى اعتادت عيناي على الظلام، فرأيت الحظيرة، تقدمت لها وأزحت الباب، ثم فتحت الباب لأرى أوزتين.. وكلما حاولت أن أمسك بواحدة منهما، كانت صيحات الثانية ترتفع، فلم يكن أمامي مفر من الامساك بالاثنتين معًا بسرعة!

قفزت للداخل، فأمسكت بواحدة، وباللحظة التالية أمسكت بالثانية..

خبطت رأسيهما بالحائط حتى تسكتا، لكن الأوزتين تحولتا خلال لحظة لكتلة من الحركة والأجنحة.. أخذت أترنح، وخُيل لي أن ذراعيّ قد صارتا أجنحة رفرافة، وأنني أكاد أحلق في كبد السماء..

شعرت بضربة قوية تباغتني، سقطت بعدها على الأرض، سامعًا زمجرة مخيفة.. رأيت كلبًا من طراز «البول دوج» يحاول أن ينشب أنيابه في عنقي، فتمددت ساكنًا على الأرض، وقد دسست ذقني في صدري..

سحب الكلب رأسه بعد فترة خُيل لي أنها قرون، فجلس بجانبي ساكنًا، وكلما حاولت الحركة كان يعود لزمجرته المخيفة!

فكرت في الموضوع للحظة، فلم أجد أمامي إلا أن أخرج مسدسي قبل أن يظهر أحدهم، فأخذت أحاول تقريب يدي من مكان المسدس ببطء وحذر شديدين..

قبضت بأناملي على المسدس أخيرًا بعد فترة خيل لي أنها ساعة، فشهرت المسدس سريعًا وأطلقته، فوثب الكلب اللعين جانبًا وهو يعوي.. بمجرد أن اندفعت خارجًا من باب الحظيرة، حتى تعثرت بإحدى الأوزتين فسقطت على رأسي!

أمسكت بالأوزة سريعًا، وقذفتها من فوق الجدار وتسلقت من ورائها.. ما كدت أعتلي الجدار حتى وجدت الكلب يقفز في أثري، فألقيت نفسي سريعًا من الناحية الأخرى.. رأيت «كات» وقد أمسك بالأوزة على بُعد خطوات مني، وسرعان ما كنا نجري بجانب بعضنا.. أخمد «كات» أنفاس الأوزة ونحن على الطريق، وذهبنا لكوخ مهجور نستخدمه في تلك المواضيع.. كانت هناك قطعة من الحديد في إحدى أركانه، تقوم بدور الموقد، وكانت مرفوعة على بعض الأحجار.. جئت ببعض الحطب وقمت بإيقاد النار، بينما انشغل «كات» في نزع ريش الأوزة وتنظيفها.. احتفظنا بريشها لنصنع منه وسادة كتذكار لنا لتلك الغزوة الناجحة..

ارتفع قصف المدافع بالجبهة ووصل حتى مكاننا، وسمعنا فجأة دويًا شديدًا تسبب في اهتزاز جدران الكوخ.. علمنا أنها قنابل الطائرات....

ثم ارتفعت صرخة مخيفة، ففهمنا أن أحد الأكواخ قد سقط فوق من كانوا بداخله!

اقتحم صوت أزيز الطائرات آذاننا، لكن نافذة الكوخ المهجور كان يغلفها غطاء كثيف لحسن الحظ، فلا يمكن لأحد أن يرانا من الخارج..

جلسنا متواجهين، نقوم بشيّ ضحيتنا ذات الريش سابقًا، بينما ظلمات الليل الموحش تحيط بنا من كل جانب، مُنذرة إيانا بما يمكن أن يصيبنا من كوارث.. بقينا صامتين لكن كل واحد منا كان

يدرك ما يدور بداخل رأس رفيقه من أفكار، ويشعر به أقرب الناس لقلبه..

استغرقت عملية الشواء هذه وقتًا كبيرًا، فأخذنا نتبادل العمل.. وبمجرد أن نضجت، أخرج كل منا مطواته وشوكته، واقتطع فخذًا من الأوزة.. لحسن الحظ أنه كان معنا بعض الخبز، فانهمكنا في التهامها بشهية عظيمة..

كنا كأخوين، فراح كل منا يؤثر رفيقه بأفضل الأجزاء.. وعندما شعرنا بامتلاء بطوننا، بدأنا في التدخين، وكان لا يزال جزء كبير من الإوزة باقيًا..

اقترحت على «كات» أن نحمل جزءًا منها لزميلينا «كروب» و «جادن»، فوافقني.. عندما ذهبنا إليهما في مأوي الدواجن، قمنا بإيقاظهما، وقدمنا لهما نصيبهما من الغنيمة، فظنوا أننا ساحران..

سرعان ما أنشب كل واحد منهما مخالبه وأنيابه في نصيبه، وتناول «جادن» جناحًا كاملًا بين أسنانه، فراح ينهش فيه كالوحش الجائع..

عدنا بعد هذا للكوخ في الفجر تقريبًا، وتسلل كلانا لفراشه راضيًا قرير العين، بعد امتلاء معدته بألذ أنواع الطعام..

الفصل السادس

انتشرت الكثير من الإشاعات عن إحتمالية قرب هجوم الأعداء، فصدرت لنا الأوامر بذهابنا لميدان القتال قبل موعدنا المعتاد بيومان.. مررنا في طريقنا بمدرسة قد دمرتها القنابل بالكامل، وبالقرب منها رأينا مجموعة من التوابيت الجديدة بلغ عددها ما يقرب من المائة، وقد انتصبت في وضع رأسي!

دهش «موللر» للمنظر، وقال:

- ياله من إستعداد جيد للهجوم..

أجابه «ديترينج»:

- لقد أحضروا هذه التوابيت لنا يارفيق!

أجابه «كات» بغضب:

- لا تتفوه بهراء!

قال «جادن»:

- من يفوز بتابوت سيكون سعيد الحظ، فإنهم في الأغلب يلقون بجثثنا العتيقة في قطعة من المشمع، قبل أن يقوموا بإلقائها تحت التراب..

راح باقي رفاقنا ينغمسون في تبادل تلك النكات التي لم أستسغها.. لكن هل كان في إمكاننا أن نفعل شيئًا آخر؟ هذه التوابيت صُنعت لنا فعلًا.. وهو إستعداد لا يحتاج لتأكيد من أحد..

بدا كل شيء أمامنا في حالة من الفوران، وقضينا ليلتنا الأولى في الاستعداد والقيام باستطلاعات.. عندما ساد الهدوء، سمعنا صوت مركبات النقل وهي تقوم بعمل مستمر خلف خطوط الأعداء.. لم تنقطع هذه الحركة حتى بزغ الفجر.. قرر «كات» أنهم لن يتراجعوا بل سيحضرون فصائلهم الأخيرة وذخائرهم بلا انقطاع لميدان القتال..

فهمنا على الفور نية الإنجليز بتعزيز مدفعياتهم، فقد جاءوا بما لا يقل عن أربع بطاريات جديدة من التي تقذف لمرمى بعيد.. صارت حالتنا النفسية في الحضيض، فلم نكد نمضي ساعتين في الخنادق حتى بدأت قذائفنا نحن تتساقط علينا، وقد تكرر هذا الخطأ لثلاث مرات خلال شهر وحد.. ولو كانت المسألة خطأ في تقدير الهدف لما اشتكي أحد، لكن المشكلة أن مدافعنا نفسها قد هلكت من طول الاستعمال وكثرته، وكانت القذائف ترتد فتسقط في خطوطنا، وقد جُرح اثنين من رجالنا بسببها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان ميدان القتال كقفص ينحبس فيه الجنود يتوقعون فيه أي شيء.. فنحن نقضي الوقت أسفل شبكة القنابل المتقاطعة، ونعيش في قلق دائم.. الحظ وحده هو الذي يتراوح ويتذبذب فوق الرؤوس.. لو ألقيت علينا قنبلة، فكل ما يمكننا فعله هو أن نتنحى جانبًا، وننكمش على أنفسنا..

ليس في وسع أحد أن يستطيع تحديد أين ستقع ولا متى!

هذا الحظ أكسبنا بمرور الوقت لا مبالاة بكل شيء.. منذ بضعة أشهر كنت أجلس في أحد الخنادق أقوم بلعب الورق مع بعض الرفاق، وبعد مرور بعض الوقت تركتهم وقررت الذهاب لخندق ثاني لأقوم بزيارة بعض الأصدقاء، وعندما عُدت للخندق الأول بعد انتهاء زيارتي لم أجد له أي أثر، فقد أتته قنابل أزالت كل معالمه! وعندما قررت أن أقصد الخندق الثاني، وجدت من كانوا فيه يقومون بشقه من جديد، فقد رُدم في الفترة التي مضت بين ذهابي وعودتي!

الحظ هو الفاصل الوحيد بين الحياة والموت، وقد يتمزق الجندي إربًا في خندق مسلح مجهز، بينما يصمد آخر لعشر ساعات داخل خندق مكشوف على مصراعيه، دون أن يصيبه أدنى ضرر.. وربما لا يحالفنا الحظ في كل مرة، لكننا نؤمن جميعًا بالحظ ونثق به كل الثقة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توجب علينا أن نهتم بأمر الخبز الذي معنا، فقد كثرت الجرذان بطريقة رهيبة في الخنادق في الأيام الأخيرة بسبب سوء حالة الخنادق.. فسر «ديترينج» هذا بأنه نذير بقرب تدمير هائل بالمكان..

الواقع أن الجرذان هنا كانت بشعة المنظر، مُفرطة السمنة، من النوع الذي يُسمى بآكلة الجثث، لها وجوه شنيعة عارية، وكان منظر أذنابها الطويلة العارية من الشعر يثير الاشمئزاز!

كانت في أشد حالات الجوع، فصارت تنقض على أرغفتنا، وعندما يأس»كروب» من طردها، قام بلف رغيفه في مشمع ووضعه أسفل رأسه، لكنه لم يجد للنوم سبيلًا فقد راحت الجرذان تتقافز فوق وجهه، محاولة الوصول للرغيف!

أراد «ديترينج» أن يخدع الجرذان، فقام بربط رغيفه في قطعة من السلك وعلقها في سقف الخندق، لكنه عندما اسيقظ في الليل وقام بتصويب مصباحه الكهربائي نحو السقف، وجد السلك يتأرجح يمينًا ويسارًا، وقد امتطى الرغيف جرذًا سمينًا..

قررنا جميعًا أن نضع حدًا لهذا الموضوع، لكن لم يكن بوسعنا أن نرمي الخبز وإلا لن نجد ما نأكله بالصباح، فقررنا أن ننتزع الفتات التي أعملت فيها الجرذان مخالبها، ووضعناها في منتصف الخندق، وتناول كل منا مجرفة ووقفنا على أهبة الاستعداد، بينما حمل كل من «ديرتينج» و«كروب» و«كات» مصابيحهم، وقبعوا في الانتظار..بقينا على هذا الحال لبضع دقائق، ثم سمعنا صوت أقدام صغيرة كثيرة، فأضيئت أضواء المصابيح فجأة، وانهال كُل منا بمجرفته على هذا العدو المزعج الذي سرعان ما توارى مذعورا، لكن حظينا بنتيجة طيبة. حملنا بعد هذا الجرذان الميتة فقمنا بإلقائها خارج الخندق.

كررنا تلك العملية عدة مرات، لكن سرعان ما فطنت الجرذان الخبيثة للفخ الذي نوقعها فيه، ولم تعد للظهور ثانية..

لكننا لم نجد لفتات الخبز الموجودة بمنتصف الخندق أثرًا في الصباح، وفي الخندق المجاور لنا قامت الجرذان بمهاجمة قطتين ضخمتين وكلبًا، أعملوا فيهم أنيابهم حتى قضوا عليهم، ثم التهموا لحمهم!

باليوم التالي أخذنا نتجول في الخنادق، وقد أعلنّا حربًا حامية على تلك الجرذان!

وردت لنا كميات كبيرة من الذخيرة والقنابل اليدوية.. وعندما حل الليل، قام العدو بإلقاء كميات كبيرة من الغازات الخانقة علينا، فتوقعنا أن يبدءوا بهجومهم بعد هذه الخطوة، فتمددنا في الخنادق، وقد ارتدينا أقنعة الغازات، على استعداد لتمزيق العدو بمجرد أن يظهر لهم أي أثر..

بزغ الفجر دون حدوث شيء، لكننا كنا نسمع تلك الحركة الدائمة خلف خطوط العدو، والتي توحي باستمرار عمليات النقل بالقطارات واللوريات، فرحنا نتساءل عما يعدونه لنا.. كانت بطارياتنا تقوم بقذف نيرانها دون إنقطاع، لكن الحركة لم تتوقف في صفوفهم.. بدت دلائل الإعياء على سمات وجوهنا، فراح كل منا يتحاشى النظر لعينا رفيقه.. قالت «كات» متشائمًا:

- سرعان ما ستقوم موقعة كموقعة «السوم»، حين ظلوا يلقون قذائفهم علينا لمدة سبعة أيام بلياليهم كاملين دون إنقطاع!

لم يكن لنا ألا نصدقه، فهو جندي قديم بوسعه أن يشم الخطر من على بعد..

لكن الأيام مرت تباعًا دون أن يحدث شيء.. عندما جاء دوري في الحراسة الليلية، تسلمت مكاني قرب مدخل الخندق، حيث كانت الصواريخ المعلقة تتطاير واحدًا بعد الآخر في السماء، قبل أن تتلاشى على الفور..

جلست القرفصاء متوتر الأعصاب خافق القلب.. كنت أتطلع لساعتي الفسفورية من وقت لآخر، فيخيل لي أن عقاربها لا تكاد تتحرك.. بدأ النوم يداعب جفناي، لكنني بذلت كل ما بوسعي من جهد لطرده.. لم يحدث شيء حتى انتهت نوبتي، فدب الهدوء في نفوسنا تدريجيًا، وبدأنا نلعب الورق، راجين أن يحالفنا الحظ هذه المرة..

حلقت مناطيد الاستكشاف طيلة النهار، ووردت شائعة بكون العدو سيستعين في هجومه بالدبابات والطائرات، لكن مضى النهار دون أن يتحقق شيء من هذا..

استيقظنا بمنتصف الليل، فوجدنا الأرض تتموج من أسفلنا، وقد بدأت القذائف تنهال علينا من كل صوب، فتسللنا للزوايا، ورأيت قذائف من كل عيار تشق طريقها نحونا!

وضعنا أدواتنا إلى جانبنا، وأخذنا نتفقدها كل فترة لنطمئن أنها كما تركناها.. كانت جدران الخندق تهتز كل حين، بدويّ يصُم الآذان، بينما أخذت النيران تشق طريقها مقتحمة حجاب الظلام، وفي فترات الوميض هذه كنا نتبادل النظرات، ليجد كل منا وجوه رفاقه شاحبة بشفاه منغلقة، وكل واحد منا يهز رأسه في صمت..

شعرنا بالقذائف الثقيلة التي كادت تدك قواعد الخندق لتهدمه فوق رؤوسنا، وما كادت معالم النهار تتضح حتى غاض الدم من وجوه بعض المتطوعين الجدد، فاستسلموا للقيء الشديد، فيبدو أنها كانت التجربة الأولى لهم، ولابد أنها كانت أكثر مما بوسع أعصابهم أن تتحمل..

بدأ ضوء النهار يتسرب من داخل الخندق فاختلط تفجير الألغام بقذائف المدافع.. ولابد أن أُقر أن هذا هو أشنع ما بالحروب، فقد تحولت المنطقة التي يتقدم عبرها العدو لمقبرة مروعة! تحلق الجنود المنوبون عند مدخل الخندق، وقد عاد زملاؤهم للداخل ليظفروا ببعض الراحة.. كانوا يترنحون مرتجفين، وقد غطتهم الأتربة والطين..ارتمي أحدهم في أحد الأركان، وراح يلوك طعامه صامتًا واجمًا، بينما أخذ آخر ينتحب، فقد قذفته تلك الهزات العنيفة لخارج الخندق

مرتين، ورأى الموت بعينيه!

أخذ المتطوعون الجدد يراقبون الجندي الباكي مرتعدين، ومن حسن الحظ أن ضوء النهار بدأ ينتشر بالمكان، فربما تم هجوم آخر قبل الظهر!

لم ينقطع سيل القذائف، وأخذت تتساقط في الصفوف الخلفية، فلم يعد المرء منا يرى إلا ألسنة اللهب وأعمدة الوحل.. لم يحدث الهجوم المنتظر حتى الآن، لكن انهمار المقذوفات لم يتوقف، فكادت أطرافنا تتجمد، ولم يقو أحدنا على الكلام.. رُدم خندقنا تدريجياً، فامتلأ بالحفر والأتربة المنهارة كالجبال.. سقطت قنبلة عند مدخل الخندق، فساد الظلام على الفور لتدفننا تحت الأرض.. ولم يكن هناك مفر من أن نحفر طريقنا للخارج وإلا لقينا حتفنا.. لم تكد تمر ساعة حتى كنا قد فتحنا المدخل من جديد، فشعرنا ببعض الهدوء يكتنفنا لانشغالنا في تلك العملية المجهدة..

تسلل قائدنا بعد هذا لداخل الخندق ليبلغنا أن خندقين قد رُدما عن آخرهما..

شعر المتطوعون الجدد بشيء من الاطمئنان عند رؤيتهما للقائد سليمًا، وقد قرر لنا أنه سيحاول أن يتم إمدادنا بالطعام هذه الليلة..

وجدنا بعض الاطمئنان عند سماع تلك الأخبار، وأحسسنا أننا نوشك على التواصل مع العالم الخارجي من جديد.. ورأى المتطوعون الجدد أنه مادام إحضار الطعام أمرًا ممكنًا، فالموقف لا يدعو لليأس..

لكن فشلت جميع المحاولات التي تمت للخروج وإحضار بعض الطعام، وعادت البعثتان اللتان تم إرسالهما بخُفيّ حُنَين، ولم يكن نصيب «كات» حينما حاول بأحسن ممن سبقوه.. ولو أرسلنا دبابة لما تمكنت من النفاذ عبر تلك الشبكة الخطيرة الشيطانية.. شدّ كل منا حزامه حول بطنه، فأخذنا نلوك اللقيمات المتبقية في أفواهنا لفترة طويلة، ولكن ما تبقى معنا لم يكف لكي يُشبعنا،وازداد شعورنا بالجوع مع كل لحظة تمر!

كان الليل لا يُطاق، فلم نكن نجد للنوم سبيلًا، بل كنا نظل نحدق أمامنا ذاهلين.. ولو حدث وغفونا، فلم تكن إلا لدقائق قليلة معدودة!

ندم «جادن» على أننا قُمنا بإلقاء فتات الخبز للجرذان، فلو كانت بقيت معنا لما تردد في التهامها.. وما زاد من وطأة موقفنا كان تناقص المياه التي معنا!

عندما اقترب الفجر، حدث بالخندق هرج شديد، فقد هاجمت جحافل من الجرذان الهاربة تحاول أن تتسلق الجدران.. وسرعان ما أضيئت المصابيح الصغيرة، لترتفع الصرخات والشتائم، وانشغلنا على الفور في قتلها.. والواقع أن عذاب الساعات الماضية التي مرت بنا وجد مُتنفسًا للانفجار في تلك المخلوقات التعسة المقززة.. كانت وجوهنا تتقلص، وسواعدنا ترتفع وتهبط، بينما الجرذان تصرخ! كدنا أن نشج رؤوس بعضنا البعض أكثر من مرة بالخطأ!

أنهكتنا تلك المعركة الصغيرة، فركعنا على الأرض الترابية، وعدنا لما كنا عليه من انتظار.. ولابد أن نجاة خندقنا من التدمير حتى الآن لهي معجزة من المعجزات..

زحف نحو خندقنا أونباشي يحمل رغيفًا كبيرًا من الخبز، وعرفنا أنه قد تيسر لثلاثة رجال أن

يقوموا بالتسلل ليلًا للميدان، وعادوا ببعض المؤونة.. قرروا أن النيران أخذت تنصب في كل مكان، حتى تصل لخطوط المدفعية..

رحنا نتساءل من أين يأتي العدو بكل تلك الكمية من المقذوفات التي ينهال بها علينا؟ انتظرنا طويلًا، وسرعان ما حدث ما كنت أتوقعه. أصيب أحد المتطوعين بنوبة، فأخذت أراقبه وهو يصر على أسنانه ويفتح عينيه ويغمضها دون انقطاع..كانت هذه الأعراض مألوفة لنا..

بعد هذا نهض، وتسلل لناحية المدخل فاعترضت طريقه سائلًا إياه عن مكان ذهابه، فأجابني:

- سأعود خلال دقيقة..

حاول إزاحتي من طريقه ليتمكن من المرور فقلت له:

- انتظر للحظات، فسُرعان ما ستنتهي الغارة.

استمع لي للحظة وقد بدت في عينيه علامات الهدوء، قبل أن تظهر عليه فجأة علامات الهيجان، فدفعني في عنف عنه، فقلت له:

- انتظر لحظة..

رآه «كات» وهو يدفعني، فما كاد يبتعد لبضع خطوات حتى وثبنا نحوه سويًا فأمسكناه.. ثار الفتى لحظتها فصرخ:

- اتركوني! اتركوني! أريد أن أخرج!

لم يُصغ الفتى إلينا، وحاول أن يتملص من قبضتنا، وقد نزل الزبد من شدقيه بينما أخذت الكلمات تتدافع من بين شفتيه مختلطة غير مفهومة..

كانت تلك النوبة معروفة في الخنادق، ومن يصاب بها يشعر بالاختناق والرغبة في الخروج بأي ثمن.. لكن لو تركناه يخرج لركض في كل مكان دون أن يهتم بالاحتماء من القنابل المتطايرة، وسيكون في هذا موته الأكيد..ولم تكن حالته هذه هي الأولى.. اضطررنا لتوجيه العديد من الضربات العنيفة له حتى يفيق من نوبته ليجلس في هدوء، بينما أخذ رفاقه يتطلعون إليه ممتقعي الوجوه.. تمنينا أن يكون في هذا درسًا لهم.. والواقع أن تلك الغارات التدميرية كانت أكثر مما تتحمله أعصاب أولئك البائسين.. فقد أتوا بهم رأسًا من ميدان التدريب لهذا الجحيم الذي تشيب فيه رؤوس الجنود القُدامى!

أخذ الجو الملوث من حولنا يجثم على أنفاسنا، وكنا في هذا المكان كأننا جالسين ننتظر قرعات الموت على بابنا.. فجأة بدأ سيل القنابل ينهمر فوقنا من جديد بشكل جنوني، لدرجة أن الخندق أصابته إحداها، صحيح أنها كانت قنبلة خفيفة لحسن الحظ،لكنها هزته هزًا عنيفًا.. وأخذت الخوذات والبنادق والأتربة والوحل يتطايرون جميعًا في كل مكان.. لو كان ذلك الخندق أحد الخنادق السطحية غير العميقة، لما تبقى واحد منا حيًا!

لكن تأثير تلك القنبلة كان سيئًا بما يكفي، فانتابت النوبة ذلك المتطوع من جديد، ولم تلبث أن انتقلت لاثنين آخرين، فوثب أحدهما مندفعًا للخارج، بينما انهمكنا نحن في تهدئة الباقين. أسرعت وراء الفتى الهارب، وقد فكرت في إطلاق رصاصة على ساقه لأوقفه، لكن تساقط القنابل من جديد في تلك اللحظة شتت انتباهي، وألقيت بنفسي على الأرض، وبمجرد أن نهضت

وجدت جدار الخندق وقد استحال لرقعة ملطخة بالدماء وكتل اللحم المتناثرة التي كانت كل ما تبقى من ذلك الفتى البائس..

بدا لنا أن الفتى الذي كان أول من أصيب بالنوبات قد فقد صوابه بالكامل وجُنّ تمامًا، فقد أخذ ينطح الحائط برأسه كأنه عنزة.. اضطررنا لأن نقيده بقيد خفيف، حتى يصبح بوسعنا تحريره لو حدث هجوم آخر، واستقر رأينا على أن نعيده تلك الليلة ليصبح في الصفوف الخلفية.. اقترح علينا «كات» أن نلعب الورق، وكان غرضه أن ننشغل بها كي تهدأ أعصابنا ويخفف عنا إلى حدٍ ما، لكن كل محاولاتنا ذهبت عبثًا. كنا نقطع اللعب كل حين لننصت لكل قنبلة تنفجر بجوارنا.. وبالنهاية تركنا اللعب..

أقبل الليل ثانية، فبلغ توترنا مبلغه،وقد تصلبت أقدامنا، وارتعدت أيدينا، وانفجرت مراجل الغضب والهياج داخلنا غليانًا.. لم نقو حتى على تبادل النظرات، وأصر كل منا على أسنانه..

انقطع انفجار القنابل قربنا أخيرًا، لكن ظلت المقذوفات تنهمر على الصفوف الخلفية وقد تجاوزت خندقنا.. سرعان ما حملنا القنابل اليدوية ووضعناها على حافة الخندق، وقفزنا في أثرها.. كانت القذائف المدمرة قد انقطعت، وقد أخذت مدافع العدو تقذف نيرانها خلفنا، وبدأ الهجوم!

كان من المستحيل أن يصدق أحد ببقاء أي شخص حي في مثل هذا الجحيم المستعر، لكن الخوذات الحديدية ظهرت من كل نقطة على طول خنادقنا.. رأينا أحد مدافع الماكينات يقوم بإرسال نيرانه الحامية على بعد نحو أربعين مترًا أمامنا..

تقطعت الأسلاك الشائكة وتهدلت، لكنها بقيت كحائل في وجه العدو، والذين فتحنا مدافعنا بمجرد أن رأينا طلائعهم قادمين نحونا!

تدفق الرصاص من بنادقنا بسخاء وتبعناها بقذائفنا التي شتت صفوفهم وجمعهم.. بدأ «هاي» و»كروب» بالقاء قنابلهم اليدوية فراحا يقذفانها بأقصى سرعة لديهم.. كان بعضنا يناولهما إياها فيتوليان هما عملية القذف باحتراف.. وكان بوسع «هاي» أن يقذف من على بعد ستين متراً، و»كروب» من على أربعين مترًا.. والواقع أن تحديد المسافة في تلك الظروف أمرًا مهمًا للغاية، فلم يكن بوسع جنود العدو وهم يركضون نحونا فعل شيء ذي بال قبل أن يصبحوا على بعد ثلاثين مترًا منا على الأقل!

ميزنا الوجوه المتقلصة، والوجوه المسطحة، فقد كانوا فرنسيين.. وبمجرد أن وصلوا لمنطقة الأسلاك الشائكة حتى كانت خسائرهم قد بلغت مبلغًا جسيمًا. فقد سقط صفٌ كاملٌ منهم تحت لهيب نيران مدافع الماكينات،لكنهم ظلوا يتقدمون للأمام..

رأيت واحدًا منهم يتعثر في الأسلاك، إذ كان رافعًا رأسه لأعلى.. وعندما سقط جسده بقيت يداه مرفوعتان كأنه يؤدي صلاة، قبل أن يهوي جسده وحده، بينما ظللت يداه على وضعهما معلقتين في الأسلاك، فقد بترتهما القذائف المتهاوية بترًا فصلهما عن باقي جسده!

وبينما كنا نهم بالتراجع، برزت من الأرض ثلاثة وجوه، كان أحدهما ذا لحية مدببة وعينين نافذتين، وكان ينظر نحوي.. المجزرة الهائلة التي دارت من حولي كانت على أشدها، بينما بقي ذلك الوجه يحدق في بدون حركة.. وبمجرد أن ارتفع عن الأرض حتى ألقيت بقنبلتي في لحظة

لتنفجر عنده!

أخذنا نتراجع للخطوط الخلفية، ورحنا نشد الأسلاك الشائكة حول خنادقنا ونترك عندها قنابل على أهبة الانفجار، حتى نضمن التقهقر بانتظام..

أخذت مدافع الماكينات في ذلك الوقت تعمل بنشاط من المنطقة المجاورة لنا..

صرنا في ذلك الوقت أشبه بحيوانات مفترسة، فلم نكن نقاتل، وإنما كنا ندافع عن أنفسنا لننجو من براثن الموت الذي يتربص بنا ويداعبنا بمخالبه السوداء!

لم نكن نعتبر أن من نقذف قنابلنا نحوهم بشر مثلنا، وإنما كانوا في نظرنا رسل الموت. رسل لهم يد وخوذات بعث الموت بهم ليتعقبونا ويوردوننا حتفنا.. للمرة الأولى منذ ثلاثة أيام جاءتنا الفرصة لنرى الموت وجهًا لوجه ونقاومه.. شعرنا بالغضب والكراهية يعتملان داخل صدورنا.. لم نعد عاجزين مقيدين كما كان حالنا من قبل، بل أخذنا نقتل ونفترس وندمر، إنقاذًا لأنفسنا وثأرًا مما نالنا قبلًا..

أثناء التقهقر للخلف كنا نتوقف عند كل ركن، وخلف كل كومة من الأسلاك، فنقذف كمية من القنابل اليدوية، لتهاجم أقدام العدو، بينما نركض نحن مبتعدين.. رحنا نعدو للأمام، وقد انكمشنا حول أنفسنا كالقطط، وقد طغت علينا موجة من الوحشية جعلتنا أشبه بالشياطين والسفاحين! ضاعفت تلك الموجة من قوانا، وزادت من خوفنا، وجنوننا وحبنا للحياة.. لم نكن نقاتل ولا نتسبب في الهلاك إلا من أجل أنفسنا ووصيانة لحياتنا.. ولو كان أحدنا قد رأى أباه في تلك اللحظة، لما تردد في قذف قنبلة في وجهه!

أخلينا الخنادق الأمامية التي تدمرت عن آخرها، فاستحالت أكوامًا من التراب والحفر.. لكن خسائر العدو كانت أكثر، ولم يتوقعوا أننا سنصمد أمامهم ولا أن نمنيهم بتلك المقاومة العنيفة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سلطت الشمس جام غضبها مع انتصاف النهار، فأخذ العرق يسيل على عيوننا فيلدغها كما لو كان سرب من النمل.. أخذنا نجففه بأكمامنا، فوجدناها تتلوث بالدماء التي تسيل علينا من فوق.. وصلنا أخيرًا لصف من الخنادق التي كانت بحالة جيدة، وقد تزاحم فيها بعض رجالنا بأسلحتهم، وكانوا على استعداد لصد هجوم الأعداء، فنزلنا معهم، وفتحنا مدافعنا بنيران حامية لوقف الهجوم..

اصطف المهاجمون، وعجزوا عن التقدم أكثر من هذا، فسحقت مدفعيتنا هجومهم بالكامل، وكنا نراقب من أماكننا النيران المتطايرة من مدافعنا، وهي تنصب على مدى مائة ياردة للأمام.. اندفعنا في حمايتها نطارد جنود الأعداء، ورأيت بجانبي جاويشًا وقد تمزق وجهه وقبل أن يخطو بضع خطوات فوجئت بتدفق الدماء من عنقه كأنها نافورة، ولم تكد تمض عليه ثواني حتى سقط على الأرض جثة هامدة!

لم نلتحم معهم وجهًا لوجه، فقد عادوا لثكناتهم، ووصلنا ثانية لخنادقنا المدمرة وتجاوزناها.. اندفعنا بكل غضب وجنون ووحشية، ولم يكن ثمة مفر من التقهقر قتلًا وتمزيقًا، لنفترس ألد أعدائنا.. كانوا يصوبون علينا بنادقهم، ويقذفونا بقانبلهم.. ولو لم نهلكهم لأهلكونا!

كنا نركض للأمام بين صراخ الجرحى المتمددين على الأرض، والذين كانوا يتشبثون بأقدامنا، وقد خلت نفوسنا من كل شعور إنساني..

كنا في ذلك الوقت مُجرد أشباح متحجرة متجمدة القلب، ميتة الإحساس.. نعدو ونلقي بذور الهلاك ذات اليمين وذات الشمال..

تخلف جندي فرنسي عن رفاقه رافعًا مسدسه، ربما للهجوم أو للاستسلام، لكن في اللحظة التالية هوت مجرفة حادة قسمت وجهه نصفين! حاول زميل له الإفلات، لكنه لم يكد يستدير حتى استقر سونكي بندقية مقتحمًا ظهره، فوثب في الهواء صارخًا وقد رفع ذراعيه لأعلى، قبل أن يهوي أرضًا وقد استقر السلاح في جسده..

ألقى فرنسي ثالث بندقيته أرضًا، فجلس مستسلمًا مخفيًا وجهه بين يديه، فتركناه خلفنا مع بقية رفاقه من الأسرى، لنقل الجرحى وإسعافهم..

بينما كنا منهمكين في تلك المطاردة، إذ بنا نصل فجاة لخطوط العدو وراءهم مباشرة، وهكذا لم نتعرض للكثير من الخسائر.. حاولوا أن يصوبوا نحونا مدافع الماكينات، لكن قذف أحد رجالنا قنبلة نحوهم أسكتتهم فورًا..

لكن قبل أن يسكتهم كان مدفعهم قد أصاب ستة منا بجراح شديدة!

هوى «كات» بقاعدة بندقيته على رأس أحد رجال المدفع الذي لم يُصب بجراح، فجعل وجهه خليطًا غير واضح المعالم من اللحم والدم، بينما أغمدنا نحن حِرابنا في صدور الباقين، قبل أن يتمكنوا من إلقاء ما معهم من قنابل يدوية.. ثم انقضضنا على ما معهم من مياه تستخدم في العادة لتبريد حرارة المدافع، فاستخدمناها لتبريد نيران عطشنا المتأججة!

شرعت قاطعات الأسلاك الشائكة تزاول عملها بهمة، فمدت الألواح فوق لفائف الأسلاك فوثبنا من خلال تلك الفتحات متسللين لخنادق العدو، وقذف «ديستوس»بمجرفته نحو عنق جندي فرنسي ضخم الجثة، وقذف نحوه بقنبلته اليدوية الأولى.. انكمشنا خلف إحدى الجدران لثواني، قبل أن نرى ذلك القسم خاليًا، فقذفنا بقنبلة أخرى نحو نهايته!

ثم شققنا طريقنا نحو خندق مجاور، وبدأنا نقذف القنابل نحوهم واحدة بعد الأخرى..

أخذت الأرض تهتز من أسفلنا،بينما الجدران تنهار، والأنات تتصاعد من كل مكان من حولنا!

تعثرنا في تقدمنا في كتل اللحم والجثث الممزقة المرمية في كل مكان، وبينما كنت أسير، وجدت نفسي أتعثر فأسقط على بطن مبقورة! تبين أن صاحبها ضابطًا في مقتبل شبابه..

بعد مرور بعض الوقت انتهى القتال، فلم نعد نر للعدو أثرًا. ولم يكن بإمكاننا البقاء هناك لفترة طويلة، فكان متوجبًا علينا أن نتراجع نحو خطوطنا تحت حماية مدافعنا.. عندما استقر رأينا على هذا اندفعنا نحو أقرب خندق منا، فاغترفنا منه كل ما كان بوسعنا حمله من عبوات اللحم االمحفوظ والزبد.. عدنا بأمان، ولم يحاول العدو أن يعاود الهجوم علينا.. تمددنا أرضًا لحوالي ساعة نلهث في صمت، فقد كنا في أشد التعب والإجهاد من كل ما مررنا به خلال الساعات القلية الماضية، حتى أننا لم نفكر في ما أتينا به من مؤونة رغم اشتداد جوعنا.. بالنهاية عدنا لوعينا وصرنا أقرب للبشر من جديد، فشرعنا نلتهم ما استولينا عليه من طعام خنادق الأعداء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرت الأيام بنا، وتتابعت الساعات العصيبة كأنها في سباق محموم، حتى صارت مما اعتدنا عليه وألفناه.. تكرار هجوم الأعداء، ثم الدفاع، يليه الهجوم المضاد.. أثناء هذا كان عدد الصرعى في تزايد، وتكدست الجثث في الحفر التي صنعتها المقذوفات والقنابل.. تيسر لنا أن ننقل العديد من الجرحى الذين تساقطوا في أماكن قريبة من مواقعنا، لكن بقي الكثيرون منهم في وسط الجبهة لبعدهم عن مكاننا، وصعب علينا الاتصال بهم، فكنا نسمع أنينهم يمزق القلب وهم ينازعون سكرات الموت الذي حل بمنجله وسط الخراب والدمار الذين سادوا المكان..

تزايدت حرارة الطقس، وتناثرت جثث القتلى أرضًا حول الخنادق، فلم يتيسر لنا حملها لأماكننا لصعوبة تلك المحاولة حد الاستحالة، فتركنا مهمة دفنهم للقذائف..

كانت بطون بعض الجثث قد انتفخت بمرور الوقت، فتصاعدت منها غازات كريهة وهي تحدث فحيحًا كالأفاعي.. كلما هبت ريح علينا حملت معها تلك الروائح العفنة لأنوفنا، فتصيبنا بدوار وقيء يكادان يزهقان أنفاسنا..

خفت حدة القتال ليلًا، وساد هدوء تام في الأنحاء بعض الأوقات، فكان بعضنا

يخرج لالتقاط المظلات الحريرية الصغيرة التي تساقطت من الصواريخ المعلقة، فنستخدمها كمناديل..

ذات صباح رأينا فراشتين تحلقان حول الخندق فتعجبنا، لانعدام النباتات والزهور في محيطنا.. استقرت الفراشتين فوق إحدى الجماجم، يبدو أن الفراش مثلنا قد ألف الحرب، فلم يعد يجد في جوها القاتم ما ينفر!

توقفت الجرذان عن الظهور في الخنادق، فقد وجدت مرادها في جثث القتلى،

فتضخمت أجسامها..

أطرف شيء شاهدناه كان المعارك الجوية التي تحدث بين طيارين جيش الأعداء، فكثيرًا ما تمتلئ بالمفاجآت..

كنا نكره طائرات الكشف والاستطلاع من كل قلوبنا، فهي من ترشد العدو لأماكن تواجدنا، فلا تكاد تبتعد عنا بلحظات، حتى تنهمر علينا قذائفهم والقنابل.. خسرنا في أحد الأيام أحد عشرة رجلًا، بينهم خمسة من فرقة جنود الناقلات!

وبالنهاية قام العدو بإمطارنا بقنابله من جديد، فعدنا لما كنا عليه من توتر وجزع شديدين..

خسرنا عددًا كبيرًا من رجالنا، معظمهم من المتطوعين..حاولنا سد الثغرة التي حدثت بالصفوف بمجموعة جديدة من الفتيان الأحدث الذين تم تجنيدهم حديثًا، لكن المشكلة أنهم لم يكونوا قد تلقوا ما يكفي من التدريب، وإنما تم إرسالهم للميدان في عجلة دون أن يفقهوا من فنون الحرب شيئًا إلا بعض المعلومات النظرية.. كانوا يعرفون ما هي القنابل اليدوية، لكنهم لم يكونوا يعرفون إلا أقل القليل عن وسائل الاحتماء من القذائف، وهي نقطة مهمة للغاية وخطيرة تتوقف عليها حياة الجنود أثناء تواجدهم في ميدان القتال!

صحيح أننا كنا بحاجة شديدة لهؤلاء المتطوعين، إلا أن وجودهم كان أحيانًا عقبة في طريقنا،

ولم يقدموا ما هو منتظر منهم من تعاون.. سقط في أيديهم بمجرد أن وصلوا لهذا الفرن الجهنمي، فأخذوا يتساقطون صرعى كأنهم سرب من الفراشات تتحلق حول النيران.. الواقع أن حروب الخنادق الحديثة تتطلب توفر المعلومات مع الخبرة فلا بُد للجندي أن يكون على معرفة كاملة بأحوال الأرض التي تدور الحرب فوقها، وقادرًا على التمييز بين أنواع القنابل والمقذوفات المختلفة.. وأن يعرف مسبقًا مرمى القنابل قبل أن تسقط، وكيف ستنفجر، وكيف يتمكن من الاحتماء منها..

لكن مشكلة المتطوعين الجدد أنهم لم يكونوا يعرفون أي شيء من تلك المعلومات بالطبع، وكانوا فوق جهلهم هذا يجتمعون سويًا كقطعان من الأغنام، عوضًا عن التفرق في مختلف الجهات، فيحصدهم الموت حصدًا بسهولة..

كانت وجوههم ساذجة بريئة كالأطفال، والواقع أن تقدمهم يكون باستبسال، معرضين أنفسهم للموت الذي انطلق يحصدهم بلا تهاون.. لكن أشد ما كان يوجع قلبي منهم هو ما يحدث عندما يُجرحون أو تتحطم عظامهم أو تشق بطونهم، فوقتها ترتفع أناتهم منادين على أمهاتهم، بأصوات مؤثرة تمزق القلب والوجدان!

الإنسان يرثي لمرأى هؤلاء الفتية الأبرياء وهم يتقدمون نحو الموت، فيتساقطون واحدًا بعد الآخر. وود لو يأخذ بأيديهم فيبعدهم عن هذا المكان الذي لا ينتمون له على الإطلاق.

حتى الملابس العسكرية التي يرتدونها كانت واسعة، فلم تكن قد صُعنت أزياء عسكرية بعد لمثل هذه الأجساد النحيلة الضئيلة..

كان يموت منهم ما يتراوح بين الخمس والعشرة، مقابل موت جندي واحد من القدامى.. قضت إحدى غارات الغازات الخانقة على عدد كبير منهم، فلم يكونوا قد تدربوا بعد على الطريقة التي يتقون بها الأخطار المماثلة! تكدس عددٌ كبيرٌ منهم عندما قام بعضهم بنزع كمامات الوقاية من الغازات قبل أن يتحققوا بالكامل من زوال كل أثر للغازات، ولأنهم كانوا حديثي العهد بالموضوع، فلم يكونوا يعرفون أن الغازات السامة تبقى لفترات أطول في الخنادق والحفر، فعندما رأوا زملاءهم على سطح الأرض ينزعون كماماتهم ظنوا أن الموقف آمن فقاموا بتقليدهم، فتنشقوا الهواء الخانق الموجود بالخندق الذي كان لا يزال يحوي بداخله الكثير من الغازات السامة!

أثناء إحدى الغارات قمت بالاندفاع نحو أحد الخنادق، فوجدت نفسي أصطدم فجأة ب «هيملستوس»، فانكمشنا سويًا متلاصقين محتبسي الأنفاس، حتى انتهى ما كان فوقنا من خطر!

عندما أسرعنا خارجين من الخندق تذكرت «هيملستوس» برغم انفعالي الشديد وقتها، عدت سريعًا للخندق فوجدته متمددًا في أحد أركانه وقد تظاهر بأنه أصيب بجرح بالغ، بينما هو في الواقع مجرد خدش خفيف..

بدت على سمات وجهه السخط والفزع.. يبدو أنه حديث العهد بمثل تلك التجارب كذلك.. لكن صعب على أن أراه يتخلف داخل الخندق بتلك الطريقة بينما الفتيان الأحدث عهدًا بالجيش هم من يخرجون لمواجهة الموت بالخارج، فتمتمت باحتقار:

- هيا اخرج!

لم يتحرك من مكانه، بل انكمش أكثر وقد ارتجفت شفتاه وشاربيه!

بل إن انكماشه زاد عندما سمع صوتي، والتصق بالجدار المجاور له.. انفرج فمه عن أسنان صفراء كما لوكان كلبًا جبانًا.. جذبته من ذراعه في خشونة عندما بدأ ينبح!

كان هذا فوق قدرتي على الاحتمال، فقبضت على عنقه بخشونة وأخذت أهزه بعنف، وأضرب رأسه بالجدار الترابي، وأركله بقدمي!

أخذت أصرخ فيه ملأ رئتاي:

- هلم اخرج يا جبان! اخرج أيها الخنزير القذر! هنا تظهر الرجولة على حقيقتها وليس في ميدان تدريبك اللعين!

دفعته نحو باب الخندق، وفي نفس الوقت حل دورنا في الهجوم على الأعداء، وبمجرد أن رآنا الضابط نخرج حتى صرخ فينا بعلو صوته:

هيا! إلى الأمام! إلى الأمام! أسرعوا بالانضمام للصفوف!

فعلت كلماته فعل السحر في «هيملستوس»، ما لم تفعله فيه صرخاتي وسبابي، وسرعان ما عاد «هيملستوس» الذي نعرفه من ميدان التدريب، فاندفع للأمام حتى سبق الضابط نفسه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دمار!

ألغام!

قنابل يدوية!

دبابات!

مدافع الماكينات!

كلها مجرد كلمات تمر أمام عينيّ القارئ بخفة، لكنها في نظرنا تنطوي على أشنع المصاعب وأكثرها إثارة للفزع!

تغطت وجهنا بالأوحال والطين، وتشردت أفكارنا كالجياد المذعورة في كل صوب، وقد خارت قوانا وتحطمت أعصابنا، والتهبت عيوننا، ودميت ركبنا، وصُعقت عقولنا فلم نستطع التفكير بوضوح!

لم تأخذ تلك الملاحم زمنًا أكثر من أياماً معدودات، لكنها مرت بنا كسنين طويلة.. كنا نلوك طعامنا ونحن نركض، ونُلقى القنابل، أو نقتل، أو نستلقي أرضًا احتماءًا من قذائف أو إعياءًا، وما كان يشحذ عزيمتنا وربما يجدد قوانا الخائرة هوعلمنا بأن هناك من هو أشد منا ضعفًا وإعياءًا، وهم الفتيان الصغار حديثي العهد بالمكان، الذين طوحت بهم أقدارهم البائسة لمثل هذا الآتون المستعر!

أخذنا على عاتقنا في ساعات الراحة القليلة التي كنا نظفر بها أن نقوم بتعليم أولئك البؤساء ما

يفتقدونه من معلومات أساسية.. فأوضحنا لهم أهمية أن يرهفوا آذانهم لأصوات القنابل الخفيفة التي تُصدر صفيرًا خافتًا، حتى ليكاد يختفي وسط ما يسود المكان من جلبة وضوضاء، فهذا النوع هو الأشد خطرًا من بين كل الأنواع، وأخطر حتى من القنابل الثقيلة التي يسمع صوتها قبل اقترابها بزمن كافي للاحتماء!

شرحنا لهم كيف يقومون بالاحتماء من الغارات الجوية، وكيف أنه من الأفضل أن يتظاهروا بالموت لو حدث وأدركهم العدو، فهو لن يكلف نفسه عناء الاهتمام بالموتى، بقدر اهتمامه بأخذ المصابين كأسرى.. وكيف يقومون بقذف القنابل اليدوية بالوقت المناسب، بحيث تنفجر قبل أن تصطدم بالأرض بثانية واحدة.. علمناهم كذلك كيف يقفزون بالحفر سريعًا قبل أن تلحق بهم قنابل الأعداء، وكيف يقومون بتمييز أصوات القنابل المدمرة، من قنابل الغازات الخانقة، شرحنا لهم بشكل مختصر لكن وافي كل ما يحتاجونه من معلومات وحيل لكي تساعدهم على خدع الموت والفرار منه!

كانوا يستمعون لنا بطاعة كاملة، لكن ما تكاد الغارات تبدأ من جديد حتى يغلبهم الانفعال الشديد فينسون كل ما ذكرناه لهم!

أصيب «هاي» في إحدى الغارات بجرح خطير في ظهره، وصل لرئتيه، حتى استحال عليه التنفس!

لم أملك له إلا أن أشد على يده مشجعًا مواسيًا، لكنه قال من وسط أناته المتوجعة:

- لقد انتهى أمري يا فتى!

رأيت رجالًا بلا أقدام يركضون فوق سيقانهم المبتورة، بينما رأينا جنودًا آخرين قد شُجت جماجمهم، وهم يعدون نحو أقرب حفرة، وشاهدنا جاويشًا يزحف لحوالي ميلًا ونصف يجر من خلفه ركبته المهشمة!

علي حين ذهب آخر للمستشفى وهي يحاول الضغط بيديه على أمعائه التي تدلت من بطنه فتكاد تنزلق من بين يديه.. رأينا رجالًا بلا أفواه، ولا فكاك، ولا وجوه!

رأينا رجلًا يمسك بشريان ذراعه بين أسنانه لساعتين كاملتين حتى لا ينزف منه الدم فيحصده الموت!

ولا تكاد الشمس تغرب والليل يرخي أسداله، حتى يبدأ الدمار والموت من جديد!

برغم كل هذا فقد تمكنا من الصمود، واستطعنا أن نحافظ على مواقعنا.. فلم يحصل العدو منا سوى على مساحة بسيطة لا تتجاوز مئات الأمتار، كل متر منها يوجد به جنديًا صريعًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حلت نهاية نوبتنا، وحان وقت راحتنا!

وقفنا محطمين الحواس في العربات التي أقلتنا من الجبهة في طريق العودة للراحة.. حينما ذهبنا للميدان كنا بالصيف، لكننا الآن صرنا بالخريف، وقد تعرت الأشجار من أوراقها، وتشبع الهواء بالرطوبة..

عندما توقفت العربات، نزل منها خليطٌ غريبٌ من كل الفصائل والكتائب، ووقف الرجال على

الجانبين يقومون بمناداة أسماء الفصائل والكتائب، فينفصل من المجموعة كل من يتم مناداة اسم فرقته، لكن ما لاحظته هو كون من ينفصلون أثر مناداة كل اسم فرقة، لا يتعدى عددًا ضئيلًا لا يتجاوز أصابع اليدين، ولا يتعدون مجموعة من الجنود القذرين الشاحبي الوجوه.. هذا هو كل ما تبقى من كل فرقة والذين تمكنوا من الإفلات من براثن الهلاك مؤقتًا!

نادى المنادي على اسم كتيبتنا، فإذا هو قائد الكتيبة وقد نجا من الموت، لكنه أصيب ببالغ الجروح في ذراعه، التي تم شدها على صدره بالضمادات والشاش.. هرعنا إليه، واستطعت تمييز وجود «كات»و»كروب» كذلك، فوقف كل منا يتأمل صاحبيه، متبادلين النظرات في سكون.. تكررت مناداة كتيبتنا عدة مرات، لكن الغائبين ليسوا في حال تسمح لهم بالإجابة، فهم إما ذهبوا للمستشفيات لإنقاذهم، وإما رقدت في حفر القنابل جثثهم!

نادى القائد أخيرًا بصوت خافت:

- فلتأتي الكتيبة الثانية من هنا، ألا يوجد منكم رجل آخر من الكتيبة الثانية؟

صمت القائد، قبل أن يهتف في استياء:

- هل هؤلاء هم كل من تبقى!

أصدر القائد لنا أمرًا بالعد، فقمنا بما أمرنا به!

جاءت كتيبتنا كاملة للميدان بالبداية، وقد تكونت وقتها من مائة وخمسين جنديًا، لكن عندما قمنا بالعد الآن، كان كل الموجودين٣٢ جنديًا، ومرت فترة من الصمت قبل أن يقول القائد:

- ألا يوجد أحد آخر منكم؟

انتظر القائد للحظة قبل أن يقول:

- أربعات!

لكن صوته احتبس بحلقه، فجاهد ليتمكن من قول:

- الكتيبة الثانية! خفيفًا سر!

وفي ضوء الفجر الهادئ الذي بدأ ينبلج في الأفق، تقدم صفًا قصيرًا من الرجال، لا يتعدى عددهم الاثنين وثلاثون رجلًا متهالكًا، مضعضعي الحواس!

الفصل السابع

ولأن كتيبتنا صارت تفتقر لأكثر من مائة من أفرادها، فقد توجب علينا الذهاب لنقطة عسكرية بعيدة ليتم إعادة تنظيمنا.. انضم إلينا «هيملستوس» بعد مرور يومان، وقد فارقه غروره السابق منذ ذهابه لميدان القتال، ورغب في توطيد علاقته بنا، فلم أعارض هذا، فقد رأيت كيف قام بحمل صديقي «هاي» بعد الإصابة التي حلت بظهره، فظل يحمله حتى قام بتوصيله للخندق.. وبالإضافة لهذا فقد أخذ يتودد إلينا ويتلطف معنا في المقصف كلما احتجنا لشيء، ولم يعد باقيًا منا على تحفظه وارتيابه إلا رفيقنا «جادن».. وبعد أن أخبرنا «هيملستوس» أنه قد صار أمين المطبخ حتى يعود الآخر من أجازته، اكتسب ثقة «هاي» كذلك.. قام «هيملستوس» بإعطائنا رطلين من السكر، وقام بإهداء «جادن» نصف رطل من الزبد، وبالأيام التالية كان سخيًا معنا في توزيع الطعام، فكان كل منا ينال نصيبًا لا يختلف عن نصيب الضباط أنفسهم!

توفرت لنا كل ما يمكن أن نحتاجه أو نشتهيه كجنود، الطعام الجيد الوفير والراحة.. وهذا لا يعتبر كثيرًا مقابل ما واجهناه.. لو حدث مثل هذا منذ بضع سنوات لكنا احتقرنا أنفسنا.. أما الآن، فقد كنا في أسعد حال، وقد صار كل شيء من حولنا مألوفًا بفعل العادة، حتى ميدان القتال المقيت!

الحقيقة أن العادة هي التفسير المقنع لكيفية نسياننا للحوادث التي تدور من حولنا بتلك السرعة.. بالأمس كنا نصارع الموت تحت وابل النيران والقنابل، أما الآن، فنحن نمرح بين جنبات مروج الريف في سعادة.. وغدًا سنعود على ما كنا عليه في الخنادق، وهو ما لا ننساه أبدًا. وما دمنا سنبقى في تلك البقعة الساكنة لبضعة أيام، فإن ذكريات ساعات الجبهة العصيبة لا تلبث أن تهبط فتستتر في زوايا عقولنا وقد تناسيناها مؤقتًا.. والواقع أن ما كابدناه فيها من مرارة وأهوال لا يغرينا باستعادتها على الإطلاق.. ولو حدث وفعلنا هذا لكانت أعصابنا قد تحطمت وقُضي علينا بالجنون منذ وقت طويل.. وقد توصلت إلى هذا الاستنتاج مما مررنا به من تجارب، وهو أنه يمكن احتمال الأهوال لو استطاع المرء منا أن يطرحها جانبًا من ذاكرته حتى ولو بشكل مؤقت! ولو لم يتمكن من فعل هذا وتركها تنتصر، لجُن!

إننا نكون في الجبهة أشبه بحيوانات ضارية لأن هذا هو ما يكفل لنا النجاة، فإننا في أوقات الراحة نتحول لأشخاص ماجنين عابثين، وليس بمقدورنا فعل شيء آخر، فالضرورة هي ما يحتم علينا أن نكون على هذا الحال..

نرغب في الحياة بأي ثمن، فلا يمكن أن نسمح لمشاعر لا محل لها في وقت الحرب أن تتمكن منا وتُثقل كاهلنا..

توفي»كمريخ»، ويوشك «هاي» على اللحاق به، وقد مات كثيرون قبلهما من رفاقنا وأصدقائنا، وبكتيبتنا عدد كبير جرحى استلقوا في المستشفيات المختلفة..هذه نتيجة مؤلمة، لكن هل في قدرتنا أن نفعل لهم شيئًا؟ هل نملك لهم ضرًا أو نفعًا؟

إننا أحياء وكفي!

لو كان في مقدورنا إسعافهم أو إنقاذهم، أوافتداء حياتهم بحياتنا، لفعلنا هذا منذ فترة بكل تضحية.. لكن للأسف ليس هذا هو حال الدنيا!

من مات قد مات، ومن جُرح قد جُرح، ولا تحكم لنا في مقتضيات أمور الدنيا ومصائبها.. نفكر في بعض الأوقات أنهم استراحوا من هذا العذاب، ومن يدر منا ما ينتظرنا في العالم الآخر؟ لا يسعنا إذن إلا أن نتمتع بما تبقى لنا من حياة، فننام ونأكل، وربما نشرب وندخن، فلا تذهب أيامنا هباءًا، فالحياة قصيرة الفتيل والموت يقبع في الانتظار!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ربما كانت أهوال الحرب مختبئة في أعماق ذاكرتنا حينما نبتعد عن الجبهة، لكننا لا ننساها! الحقيقة التي أنا واثق فيها هي أن تِلكُم الذكريات المروعة التي اختبئت في طيات نفوسنا وظننا أنها قد خمدت، لن تلبث أن تشتعل نيرانها ثانية وتستيقظ في أذهاننا بمجرد أن تنتهي الحرب.. وهنا ينبعث الماضي من بين أكفانه.. وتمر الأيام التي تتجمع في صورة أسابيع فشهور ليصنعوا أعوامًا هي ما قضيناه في الحرب.. ولن يلبث رفاقنا الموتى أن ينهضوا من مراقدهم فيسيرون معنا جنبًا إلى جنب، فتصفوا أذهاننا وتتحدد أهدافنا، فنزحف وإلى جانبنا رفاقنا الأموات وخلفنا أعوام الحرب المروعة، ولكن ضد من سيكون هذا الزحف؟ إلى من سيكون موجهًا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المساكن التي استقرينا فيها كانت تنتصب على إحدى ضفتيّ القناة، وهي مساكن خالية من أصحابها، أما في الضفة الأخرى، فكُنا أحيانًا ما نكلم بعض السكان.. عندما جاء الليل توجهنا للبحيرة لنظفر بحمام، فلمحنا ثلاث نساء تسرن ببطء على الضفة، ولم تحول إحداهن نظرها عنا بالرغم من أننا لم نكن نرتدي ثياب الاستحمام فيه.. نادى «لير» عليهن، فضحكن ووقفن يراقبننا، وسرعان ما كنا نلقي إليهن بكلمات فرنسية مختلطة، هي كل حصيلتنا من تلك اللغة، بقصد استيقافهن ومد جذور الحوار معهن.. صحيح أنهن لم تكن بارعات الجمال، لكن هل هناك أمامنا فرصة لنساء أملح منهن في مثل تلك الظروف؟

وكانت واحدة منهن سمراء نحيلة القوام ذات أسنان لامعة تظهر كلما ابتسمت، ورغم برودة المياه إلا أننا حاولنا أن نبدي لهن كل تودد ممكن، وبذلنا كل جهد لدينا لإثارة اهتمامهن حتى يبقين بالمكان، وأخذنا نوجه لهن النكات، فكانت إجاباتهن كلمات قلما نفهمها، فأخذنا نضحك ونشير إليهن.. كان «جادن» أشدنا ذكاءً ودهاءً، فأسرع إلى بيتنا وأحضر رغيفًا كبيرًا من خبز الجيش وأمسك به أمامهن.. فأحدث وجود ذلك الرغيف تأثيرًا كبيرًا عليهن، فبدأن يومئن برؤوسهن ويُشرن لنا أن نقترب نحوهن، لكننا لم نفعل..

كان العبور للضفة الأخرى محظورًا علينا، وهناك الكثير من الحرس الذين انتشروا والذين يستحيل المرور من بينهم دون إذن خاص، ولذلك أشرنا إليهن أن يأتين هن لناحيتنا.. لكنهن سرعان ما هززن الرؤوس، وأشرن لكوبري بالقرب، لكن الكوبري يوجد عليه حراس كذلك وسيكون عبوره مستحيلًا علينا.. استأنفت النساء سيرهن، وتابعناهن سباحة.. ثم توقفن بعد السير لبضع مئات من الأمتار وأشرن لمنزل منتصب يبعد عن الأشجار بمسافة صغيرة، ففهمنا أنه منزلهن..

اتفقنا على زيارتهن هذه الليلة، مستغلين الظلام الذي لن يجعل الحراس ينتبهون لنا. قالت إحداهن بتلعثم:

- لا تنسوا إحضار الخبز معكم!

أكدنا لهن أننا سنحضره معنا، وكذلك سنحضر المزيد من المأكولات اللذيذة التي حاولنا أن نصفها لهن بالإشارات. كاد «لير» أن يغرق وهو يحاول أن يشرح لهن بالإشارات أنه سيجلب معه سجقًا.. ولو كان الأمر راجعًا لنا، لأحضرنا لهن مخزن المؤونة بكامله، أخيرًا ذهبن وأخذن يتلفتن حولهن بين الحين والآخر، أما نحن فعُدنا نحو مسكننا..

ذهبنا للمقصف وشربنا كثيرًا، ثم أخذ كل واحد منا يسرد للباقين مغامراته العاطفية، يبالغ فيها بمقدار ما سمحت له أجنحة خياله.. بعد هذا بدأنا في التدخين، وعندما اقترح «كروب» أن نحمل معنا بعض السجائر بالمساء، قمنا بتخبئة بعضها تحت قبعاتنا.. كنا أربعة، لكن لا بُد أن يذهب ثلاثة فقط، ولذلك قمنا بإسكار «جادن» حتى فقد صوابه، فلما حضر الليل بظلامه ذهبنا للمكان ساندين «جادن»، فأدخلناه في فراشه، فانتقل في لحظات لعالم النوم العميق وسرعان ما ارتفع غطيطه.. لكنه لم يلبث أن استيقظ بعد لحظات وأخذ يغمز لنا بعينيه، فانزعجنا من أن يكون قد اكتشف خدعتنا حتى يخفي كل ما قدمناه له من خمر، لكنه لم يلبث أن هدأ واستغرق في نوم عميق، فتنفسنا الصعداء..

أخذ كل منا معه رغيفًا من الخبز، ولفه في قطعة ورق مع بعض السجائر، وبعض السجق المحشو بقطع الكبد. هكذا صارت معنا هدية لا بأس بها على الإطلاق!

وضعنا تلك الهدايا في أحذيتنا التي قررنا أن نحملها عنا حتى تحمي أقدامنا من الأسلاك الشائكة وقطع الزجاج المُتناثرة فوق الضفة الثانية..

وبما أنه لم يكن هناك طريق للذهاب للضفة الأخرى إلا عبر المياه فقد خلعنا ملابسنا وتركناها في المسكن، معتمدين على ستار الظلام السائد على المكان قرب المسافة التي سنتخطاها.. خرجنا حاملين أحذيتنا في أيدينا، وسرعان ما نزلنا في المياه الباردة وبدأنا نسبح، حامين الأحذية فوق رؤوسنا بما حوته من هدية ثمينة..

أخرجنا الهدايا وارتدينا أحذيتنا قبل أن نركض في وسط الظلام عرايا البدن وقد تقاطرت منا المياه، متأبطين هدايانا في اهتمام.. وصلنا للمنزل، فأخذنا نحوم حوله متلصصين،وفجأة تردد «كروب» سائلاً:

- ماذا سيكون موقفنا لو وجدنا بالداخل أحد الضباط؟

أجابه «لير» بثقة:

- وقتها سنهرب من هنا بكل بساطة، بحالتنا هذه، لن يتمكن من معرفة رقم كتيبتنا مهما كان بارعًا..

كان باب الفناء مفتوحًا، وأحدثت أحذيتنا صوتًا مسموعا.. انفتح باب المنزل وظهر منه شيء من الضوء، قبل أن ترتفع صرخات من فتحته لمرأى منظرنا!

هتفنا كلنا بصوت واحد:

- شش! نحن أصدقاء!

ظهرت بعد هذا المرأتين الباقيتين.. انفتح الباب وتسرب ضوء كافي جعلهن تتعرفن علينا،

فانفجرن ضاحكات من منظرنا، واستمرت ضحكاتهن العالية وقتًا طويلًا..

اختفت السيدات الثلاث للحظات، وألقين لنا بعض الملابس فتقبلناها شاكرين.. سرعان ما سترنا أنفسنا بها، وبعد هذا سمحن لنا بالدخول..

الغرفة التي دلفنا إليها لم يكن يُضيئها إلا مصباحٌ صغيرٌ، وشممنا منها رائحة عطرية، وقام كل واحد منا بفك هديته وقدمها لواحدة منهن، فلمعت عيونهن وبدا مقدار جوعهن..

لكن اعترانا الارتباك بعد هذا جميعًا، فقام «لير» بالإشارة لهن أن يكملن طعامهن، وفي ثانية عاودهن النشاط، فقمن ليُحضرن بعض الأطباق والسكاكين، وأخذن يلتهمن الطعام بشراهة بادية. كن يمسكن بقطع السجق فترمقنها بإعجاب قبل أن تلتهماه، بينما نحن نرى هذا مسرورين فخورين بأنفسنا..

انطلقنا بعد هذا بالحديث، لكننا لم نفهم من كلماتهن إلا أقل القليل، لكننا أنصتنا إليهن على أية حال،وظلت كلماتهن ترن في آذاننا رنينًا عذبًا كمياه نهر جاري.. الحق أقول أننا جميعًا كنا في تام شبابنا.. عبثت المرأة النحيلة السمراء بشعري وهي تهمس:

- الحرب. يالها من مصيبة كبري.. أطفال بائسين..

تشبثت بذراعها، وسرعان ما كنت أطبع على راحة يدها قبلة، فأطبقت أصابعها على وجهي!

كنت في تلك اللحظات أسعد مخلوق على وجه الأرض،وعندما ألقيت نظرة على رفيقاي وجدت أن سعادتهما لا تقل عني بتلك الجلسة التي لم نكن لنحلم بها.. بعد هذا تفرقنا في الغرف المجاورة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد مرور بعض الوقت اجتمعنا ثانية، وكان «لير» أكثرنا سعادة.. بعد هذا ارتدينا أحذيتنا وودعناهن بحرارة.. أخذنا نسير بعد هذا في ضوء القمر في خطوات واسعة، وفجأة سمعنا صوت أقدام، فاختبأنا خلف بعض الأشجار!

دنا القادم من مكاننا، وسرعان ما تبدى لنا فتى عاري الجسد لا يرتدي إلا حذائه، وكان يركض حاملًا ربطة ملفوفة تحت ابطه.. كان الزميل «جادن!

سرعان ما اختفي الفتى عن أنظارنا، فانطلقنا بالضحك، واثقين من أنه سيلعننا بالصباح بمجرد أن يجتمع بنا..

عدنا للمسكن في هدوء، دون أن يفطن لنا أحد، وسرعان ما غبنا في نوم عميق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمت دعوتي لمكتب القيادة، حيث قام القائد بإعطائي تصريحًا بالإجازة وتصريحًا بالمرور، متمنيًا لي إجازة طيبة..

نظرت للتصريح فوجدته يسمح بإجازة لمدة أربعة عشر يومًا، يضاف إليها ثلاثة أيام لرحلة الطريق نفسها..

لم أجدها مدة كافية، فالتمست منه منحي خمسة أيام أخرى للسفر، لكن «بريتنيك» أشار لي

أن أنظر للإذن ثانية، فلما فعلت وجدت أنني لن أعود بعد انتهاء الإجازة لميدان القتال، وإنما سأذهب لمعسكرات التدريب لأقضي فترة أخرى.. حسدني رفاقي، لكنني وددت لو تأخرت إجازتي أسبوعًا آخر، فقد كان من المفروض أن نبقى هنا أسبوعًا..

كان على أن أحتفل بتلك المناسبة طبعًا، فدعوت رفاقي للشراب في المقصف، وشربنا حتى كدنا نقع في براثن الثمالة وأحسست ببعض الكآبة، لأني سأتغيب نحو ثلاثة أسابيع.. هل سيُقدّر لي رؤية رفاقي هنا ثانية؟ إن «كمريخ» و»هاي» قد رحلوا للأبد، فهل سيلحق بهم آخر؟

في الصباح التالي توجهت للمحطة وقد اصطحبني»كروب»و»كات»، وعندما وصلنا أخبرونا أن القطار لن يتحرك قبل ساعتين آخرين، فودعني زملائي وعادا للقيام بالواجبات العسكرية الواجبة عليهما..

أتى موعد قيام القطار، فانساب بنا بين الحقول اليانعة والمروج الخضراء، ومر بالكثير من المحطات التي لا تثير بالنفس اهتمامًا ولا أي شعور غير مألوف..

وعندما دنا من بلدتي –مهد شبابي وأحلامي وآمالي- ثارت في نفسي الكثير من رغبات الماضي.. وقفت بجانب النافذة أنظر منها وشعرت بغصة في حلقي.. رمقت الباقين وهم يجهزون حقائبهم وأمتعتهم استعداداً للنزول..

وقف القطار أخيرًا، وارتفعت في أنحاء المحطة أصوات الصياح والتهليل، بينما حملت متاعي فوق ظهري وقد ربطت أطرافها، تناولت بندقيتي ونزلت من القطار متعثرًا..

نظرت من حولي للحظات وقد وقفت على رصيف المحطة، لكنني لم أميز من بين كل الموجودين، والذين أخذوا يجرون في كل صوب من حولي، أحدًا..

مرت بي فتاة من الصليب الأحمر فقدمت لي بعض الشراب الذي كانت توزع منه على الجنود الموجودين بالمكان، لكنني رفضت أن آخذ منها شيئًا وخطوت مبتعدًا عنها، بينما أخذت سيول الناس تتدفق خارجةً من المحطة.. خرجت وسطهم فاجتزنا كلنا القنطرة القديمة التي رقدت فوق النهار، والتي كنا نجلس فوقها قديمًا لنتبادل حكي القصص المختلفة عن أحوال الدراسة والمعلمين، بينما نتشمم رائحة النسيم العليل الآتي من فوق النهر..

سرت قليلًا بالبلدة فوجدت نفسي أمر من أمام العديد من الأماكن والمحلات التي أعرفها جيدًا، فلم تكن صورتها قد تركت ذاكرتي بالرغم من كل ما رأيته من مصاعب وأهوال بالحرب..وبمجرد أن وجدت نفسي أقف أمام بيتي حتى شعرت بقدمي تتسمر، ويداي تتثاقلان، ولم أستطع أن أتقدم فأحرك حتى المزلاج.. لكنني غالبت نفسي وانفعالي، فتمكنت من تحريك يدي ببطء نحو المزلاج الذي انفتح بسهولة، وسرعان ما كان الباب ينفرج للداخل من أمامي، ليستقبلني جو رطيب محبب ملأ نفسي حنينًا للماضي، وشعرت بغشاوة تظهر أمام عيني..

ارتفع أنين درجات السلم الخشبي العتيق تحت وقع قدماي الثقيلتان، وفتحت باب المطبخ ليهب منه عبق فطيرة البطاطس التي اعتدنا تناولها في أيام السبت، ووجدت من يطل من فوق سور السلم ليرى من هو هذا القادم، فوجدتها أختي!

شعرت بالخجل يكتنفني للحظات، فأطرقت برأسي، قبل أن أخلع خوذتي متطلعًا نحوها، وبمجرد أن تعرفت على ملامحي حتى ارتفعت صرخاتها المبتهجة:

- »بول! أهو أنت يا»بول»؟

شعرت بنفسي أكاد أسقط من فرط ثقل معداتي وبندقيتي، لكنني تمكنت من أن أومئ لها برأسي، فانطلقت مسرعة للخارج وهي لا تزال تصرخ:

- ماما! ماما! لقد عاد «بول»!

تمسكت بخوذتي وبندقيتي وأنا أتراجع لأستند على الجدار، فلم أجد بنفسي القوة لأتقدم خطوة أخرى.. وجدت درجات السلم تتلاشى من أمامي.. قمت بتثبيت البندقية بين ساقاي، قبل أن أستند عليها، وأنا أصر على أسناني بعنف من شدة ألمي.. لم أجد نفسي قادرًا على التفوه بكلمة، فقد جاء نداء أختي ليسحب كل ما تبقى في من قوة وإرادة!

حاولت أن أتحدث فلم أقدر..

حاولت أن أضحك حتى فلم أقو على فعلها..

لم أستطع أن أخرج أي صوت من بين شفتاي مهما جاهدت.. هكذا استندت على حاجز السلم كصورة مجسمة للبؤس والشقاء والعجز.. وفجأة وجدت دموعي تنهمر دون أي تحكم مني..

عادت أختي هاتفة:

- ما الخطب؟ ماذا حدث؟

تمكنت من التغلب على ما بي من انفعال فارتقيت ما تبقى من درجات وترنحت، فقمت بإسناد بندقيتي بإحدى الأركان، قبل أن أضع عدتي بجوارها وفوقهم خوذتي، وبالنهاية كان ما استطعت أن أنطق به بخشونة كان:

- أريد منديلًا!

أحضرت لي منديلًا جففت به وجهي، وعندما التفت لأعلى رأيت الصندوق الزجاجي الذي اعتدت أن أجمع فيه بالماضي الفراشات الملونة، وكان كما تركته بالضبط، وقد تألقت الفراشات بداخله حتى لتكاد تشعر بها حية في انتظار أن نفتح لها باب الصندوق لتنطلق محلقة بالفضاء.. قاطع خواطري تلك صوت أمي الذي أتى من ناحية غرف نومها، فسألت أختي:

- هل هي بالفراش؟

أجابتني بحزن:

- نعم، إنها مريضة..

دلفت لغرفة النوم، فمددت يدي نحو أمي، وقد حاولت أن أبث في صوتي كل ما بوسعي من هدوء وأنا أقول لها:

ها أنا ذا قد عدت يا أمي..

تمددت صامتة فوق فراشها في غِلَالة من الضوء الشاحب، فسألتني بقلق تَبدّى في عينيها الحزينتان:

- هل جُرحت؟

بدت شاحبة للغاية، وخشيت لسبب لم أعرفه أن تتم إضاءة الأنوار.. أجبتها بخفوت:

- لا. أنا في إجازة فلا تقلقي..

ابتسمت بحزن مجيبة:

- أمّا أنا فراقدة مكاني، أبكي بينما من المفترض أن أكون فرحة..

سألتها بقلق:

- هل أنت مريضة؟

أجابتني وهي تهز رأسها:

- سأنهض قليلًا.. لا تقلق علي..

التفتت لشقيقتي التي كانت تعاود الرجوع للمطبخ كل بضع لحظات لتتفقد الطعام لكيلا يحترق، فقالت لها:

- لا زلت تحب الكرز المجفف يا «بول»، صح؟ جهزي له بعضه يا ابنتي من فضلك..

- يا ليت..أنا لم أتذوقه منذ فترة طويلة!

ضحكت شقيقتي هاتفة:

- كنت أشعر أنك قادم قريبًا، لهذا أعددت اليوم فطيرة البطاطس وهو الصنف الذي أعرف أنك تحبه كثيرًا.. وسأعد لك بجانبه بعض الكرز المجفف..

ابتسمت لها مُجيبًا:

- يا لحظي الحسن..

قالت أمي وهي تمد يدها نحوي:

- اجلس بجانبي قليلًا يا»بول»..

ظلّت تنظر نحوي، وقد بدت يداها البيضاوين نحيلتين من المرض الذي ألمّ بها ولم أعرف كنهه بعد.. لم نتحدث إلا لبعض الوقت، وحمدت الله أنها لم تسألني كثيرًا، فلو فعلت لما تمكنت من إجابتها!

كل ما رغبت فيه قد تحقق. خرجت من الحرب سليمًا وحيًا، وها قد عدت لأرى أمي، وأختي قريبة منا تحضر العشاء في المطبخ بينما انطلق غناءها مترددًا عبر المكان..قالت أمي برقة:

- -ابني الحبيب.

لم نعتد تبادل العواطف في بيتنا، فالفقراء الكادحين أمثالنا ليس لديهم وقت لمثل تلك الأشياء، وإنما ينشغلون بمشاغل الحياة ومشاكلها، فلا يتبقى لديهم وقت للعواطف.. وليس بوسعهم أن يحددوا حتى هل لديهم نصيبٌ منها أم لا.. فمعنى ما قالته أمي بتلك الجملة الكثير والكثير..

معني لا يمكن إبرازه أو وصفه.. يكفي موضوع الكرز المجفف، فأنا أعرف أنه لم يدخل البيت لشهور طويلة بسبب ظروف الحرب، ومعني أنه موجود أنها اشترته واستبقته خصيصًا من أجلي، أو أنها اشترته منذ فترة طويلة وظلت محتفظة به لي، وكلا التصورين لا يقلان تضحية عن بعضهما في نظري..

جلست على الفراش بجانبها، فلمحت من خلال النافذة أشجار الكستناء في حديقة الحانة المواجهة لبيتنا، وقد تألقت أوراقها بغلالة ذهبية لامعة..

استنشقت بعمق وأنا أخاطب نفسي:

- لقد عدتَ لبيتك! لقد عدت لبيتك أخيرًا!

لكنني شعرت على الرغم من كل هذا الهدوء بشعور غريب لم يدعني بسلام.. لم أحس بنفسي في بيتي حقًا ولا أعرف لماذا.. فها هي أمي، وها هي أختي الكبرى، وها هو صندوق الفراش الملون، وهناك البيانو الذي اعتدت العزف عليه بالماضي فلماذا هذا الشعور الممض إذن؟

لم أجد نفسي شاعرًا بالألفة مع ما حولي، وكأنني صرت شخصًا آخر عمن كنته قبلًا.. كأن هناك حجاب كثيف مظلم يفصلني عن مفردات هذا العالم..

ذهبت فأحضرت مُعداتي قرب الفراش، وأخرجت الأشياء التي حملتها معي، وهو قرص جبن أهداه «كات» لي، ورغيفان من خبز الجيش، ومعهم رطل من الزبد، وعلبتان من السجق المحشو بالكبد وكيس صغير من الأرز الأبيض..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

همست:

- عساكم تستفيدون من تلك الأشياء..

هزت كل من أمي وأختي رأسيهما بامتنان، فقلت في استياء:

- هل تواجهون صعوبة في الحصول على طعام كافي؟

ثم ابتسمت مستطردًا:

- لا نحصل طبعًا على مثل هذه الكميات، لكننا نأكل ما يكفي.

حملت شقيقتي «إرنا» ما جلبته من طعام نحو المطبخ، بينما مدت أمي يدها لتمسك بذراعي وهي تهمس في صوت متهدج:

- كيف هي الأحوال هناك يا بُني؟

آه يا أمي! لماذا سألتيني مثل هذا السؤال! كيف سيكون بوسعي أن أرد عليه؟ لن يكون بوسعك فهمي، بل هو شيء مستحيل!

هكذا هززت رأسي مجيبًا بدبلوماسية:

ليست سيئة.. تأقلمنا على الوضع هناك. نجلس دومًا مع بعضنا، وهو الأمر الذي يخفف علينا كثيرًا..

- لكن «هنريخ» عندما أتى بإجازة قال أن الأحوال هناك شنيعة والظروف شديدة السوء، وتحدث عن غارات الغاز وما شابه..

لم تكن أمي تفقه شيئًا مما تقول، لكنها كانت قلقة عليّ على وجه الخصوص..

هل أذكر لها ما وجدناه ذات مرة في أحد خنادق جيش الأعداء، عندما وجدناه ممتلئًا بالرجال الذين وقف بعضهم وتمدد البعض الآخر، وقد علت وجوه الجميع زرقة شديدة بينما يطبق الموت على أنفاسهم؟

لا.. لن أقول.. أجبتها:

- لا يا أمي. كلها مجرد مبالغات.. كلام «هنريخ» هذا كله خالي من الصحة.. فأنا أمامك صحيح الجسد!

حاولت الاحتفاظ بهدوئي أمامها بقدر ما أستطيع، وعندما أخبرتني عن رغبتها في ترك الفراش، ذهبت لأختي بالمطبخ فسألتها عن نوع مرض أمنا..

هزت كتفيها قبل أن تنحني فوق الموقد مجيبة:

- بقيت بالفراش من شهور كثيرة.. لكننا قررنا عدم إخبارك بهذا لعدم ملائمة ظروفك، وهناك الكثير من الأطباء الذين عاودوها، وقد... وقد قال أحدهم أنها ربما تكون مريضة بالسرطان!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذهبت لقائد الحامية، فقمت بتقديم نفسي له، وسرت عبر الشوارع بخطى بطيئة متثاقلة.. كلمني بعض السكان، لكنني كنت أجيبهم ذاهب الفكر دون تركيز كثير.. كنت غارقًا في أفكاري بالكامل عندما رأيتني أقف أمام أحد الضباط الذي سألني:

- ألا تؤدي التحية العسكرية لمن هو أكبر منك رتبة أيها الجندي؟

ارتبكت، لكنني حاولت التظاهر بالثبات وأنا أجيبه:

- آسف يا سيدي، لم أكن منتبهًا..

لكنه أصر على استفزازي بقوله:

- ألم تعلم حتى كيف تتحدث بلهجة أكثر احترامًا؟

تمنيت أن أرفع يدي فألكمه!

لكنني تمالكت نفسي بصعوبة لأنني أعرف أن إجازتي معلقة بما سأفعله الآن، فضممت ساقاي سويًا وأنا أجيبه باحترام:

- آسف ياسيدي الضابط، فلم أرك!

أجابني بغلظة:

- افتح عينيك إذن.. ما هو اسمك؟

ذكرت اسمي، فقال غاضبًا:

- وما هي وحدتك أيها الجندي؟

ذكرت له كل بيانتي، لكن لم يبد عليه أنه صدقني، فأراد اختباري بأن سألني بخشونة:

- وأين مكان معسكركم؟

شعرت بالغيظ، لكني أجبته بهدوء:

- في مكان بين «لاجمارك» و»بيكشوت»..

بدا على وجهه الدهشة وهو يقول:

- حقًا؟

أجبته بأنني في إجازة منذ ساعتين فقط، وظننت أنه سيكتفي بما حدث فيتركني، لكنه عاد لغروره وهو يقول آمرًا:

- أتظنه سهلًا أن تظهر منك هنا أخلاقيات الجبهة؟ نحن نحافظ على النظام هنا! ولا نحتمل مثل تلك الوقاحة!

أمرني أن أتراجع للخلف وأؤدي التحية العسكرية، فشعرت بحالة من الغضب المجنون تهاجمني! لكنني لم أستطع أن أتفوه بكلمة، فقد كنت أعرف أن بإمكانه حبسي لو شاء، لهذا نفذت الأوامر، فسرت للوراء بضع خطوات، ثم عدت في خطوات عسكرية نحوه، وعندما صرت على بعد ست خطوات منه تصلبت وأديت التحية المعتادة، وظللت رافعاً يدي حتى ابتعدت عنه ست خطوات أخرى..

أمرني بالرجوع، بعد أن تنازل وقام بإفهامي أنه قد تفضل ورضي عني هذه المرة، وفضل أن يطبق الرحمة بدلًا من العدالة. تظاهرت بالامتنان له وشكرته، وبمجرد أن أمرني بالانصراف حتى خطوت مبتعدًا عنه بخطوات رشيقة سريعة..

أفسد ذلك الموقف مزاجي فأفسد ليلتي، وعندما رجعت للبيت قمت بنزع سترتي الرسمية فألقيت بها في أحد الأركان، ثم أخرجت ملابسي العادية فارتديتها..

بدوت مضحكًا في تلك الملابس، فقد تغير مقاسي فصارت سترتي ضيقة وقصيرة،.. يبدو أن مقاسات جسدي قد زادت في الفترة التي قضيتها بالجيش.. واجهت صعوبة في ارتداء الياقة وربطة العنق، وشعرت أن الملابس خفيفة جدًا لدرجة أني لا أرتجي إلا قميصًا وبنطالًا..

بدت على أمي السعادة وهي تراني بهذه الملابس، فهي تجعلني أقرب إليها وأقل غربة بالنسبة لها، لكن أبي على العكس كان يفضل أن يراني بسترتي العسكرية حتى يفتخر بي أمام معارفه عندما يصحبني لزيارتهم، لكنني رفضت هذا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طلبت كوبًا من الجعة أخذت أشربه بحديقة المشرب في سكون، فقد اعتدت الشراب في الفترة التي قضيتها بالجيش.. لم تعد ضوضاء الانفجارات ونفيخ الأبواق يترددون فى أذناي، ورمقت الأطفال وهم يلعبون في وداعة بين الأعشاب. بينما بالأعلى أشرقت شمسٌ ذهبية وضّاءة وسط سجادة من السماء الزرقاء المبهجة..

وجدت أعصابي تسترخي لمرأى تلك المشاهد المحببة، لكن ما عكر صفو تلك اللحظات هو أسئلة الناس التي لم تتوقف!

كان أبي يريد مني أن أظل أحدثه عن الجبهة طيلة الوقت، على عكس أمي تمامًا، والتي بقيت على حالها، راغبة عن إلقاء المزيد من الأسئلة عليّ. وقد كرهت هذا المسلك من والدي، ودفعني لتحاشيه وهو ما لم أكن أفعله قبلًا..

لم يكن مستعدًا لمعرفة أن المرء ربما لا يحب الحديث عن مثل تلك المواقف.. ربما كنت سأحب أن أجيبه عما يريد الاستفسار عنه، لكن صعوبة صياغة تلك المواقف والأحداث في شكل حروف وكلمات منطوقة هي ما صعب الأمر علي للغاية.. كنت مرعوبًا من أن تتجسد تلك المواقف من جديد في مخيلتي لو حاولت حكيها لآخرين، وربما وقتها لا أتمكن من تمالك أعصابي وعواطفي.. الأكثر رعبًا هو خاطر على بالي: ماذا يكون مصيري لو ظلت تلك الحوادث المشؤومة عالقة ببالي حتى بعد نهاية الحرب؟

اكتفيت بأن حكيت له بعض الوقائع، لكنه صمم فراح يسألني عما إذا اشتبكت في قتال مع الأعداء وجهًا لوجه، فأجبته بالسلب قبل أن أبتعد..

لكنها لم تكن النهاية، فأثناء سيري بالشارع، شعرت بيد توضع على كتفي. التفت للوراء لأجد نفسي أمام مدرس اللغة الألمانية بمدرستنا القديمة!

وعلى الفور قام بسؤالي:

- كيف هي الأحوال هناك؟ أكيد فظيعة.. صح؟ نعم، أنا واثق من أنها مخيفة، لكن لابد من الصبر.. ورغم كل شيء فأنا واثق من أنكم تحصلون على طعام جيد هناك حسب ما سمعته.. تبدو بصحة جيدة يا «بول «.. ومن الطبيعي أن تكون الأحوال هنا سيئة، فنحن نؤثر جنودنا البواسل بأفضل ما عندنا..

أخذني بعد هذا إلى حيث جلست مجموعة من رفاقه، فرحبوا بي، صافحني ناظر أحد المدارس وقال وهو يشد على يدي:

- جئت من الجبهة إذن، صح؟ كيف هي الأحوال هناك؟ ما هو حال الروح المعنوية على الجبهة؟ طيبة على ما أتمنى؟

أجبته بأنه لا يوجد من يندم على العودة لبلدته وأسرته، فضحك عاليًا قبل أن يجيب:

- أفهم كل هذا، لكن عليكم تأديب الأعداء يا فتى قبل أن تعودوا سالمين.. جرب تلك السيجارة.. يا جرسون، أحضر كأسًا لجدينا الباسل من فضلك..

لسوء الحظ أنني قبلت السيجارة، فاضطررت للبقاء مُكرهًا.. كانوا بالغي الرقة واللطف في التعامل معي، فصعب على الرحيل.. لكن هذا لم يمنع كوني دخنت كمدخنة قطار، وبمجرد أن أنهيت الكأس الذي طلبوه حتى أمروا النادل بإحضار كأسًا آخر،معلنين أنهم يعرفون أنهم يدينون للجنود بالكثير.. راحوا يتبادلون الحديث عما يجب أن يحدث..

كان من رأى الناظرأننا يجب أن نستولي على «بلجيكا» كلها ومناطق استخراج الفحم بفرنسا، بالإضافة لما يتيسر لنا الحصول عليه من» روسيا «.. أخذ يلقي إلينا بأسبابه التي توضح مدى

منطقية استيلائنا على كل تلك الأجزاء.. لم يرض أن يتزحزح ولو بمثقال شعرة عن تلك المطالب أو يتنازل عن أيها، حتى وافقه الآخرن بالنهاية.. وحدد المناطق التي يجب أن نستولي عليها من «فرنسا» لنتمكن من تحقيق مطالبه:

- عليكم أن تستولوا على تلك المناطق بمساعدة حرب الخنادق! دمرو أعداءنا واخترقوا صفوفهم، وبعد أن ننال هذا، نتكلم عن السلم!

أجبته أن اختراق صفوفهم ليس بالأمر اليسير، فلهم خطوط متعددة متتالية، كما أن الحرب تختلف عما يظنه الناس عنها ويتخيلونه..

لكنه نفى كلامي بحماس وأَنَفَة، وأجاب أنني لا أفهم شيئًا من فنون الحرب، فاستطرد:

- أعرف أنك تفهم في بعض التفاصيل، لكن كلامي يهتم بالحرب كجملة كاملة.. ليس بوسعك أن تقوم بتقدير تلك الأمور تقديراً دقيقًا، فإنك ترى الأمر من خندقك الضيق فقط، ولا يمكنك إلقاء نظرة شاملة على الموضوع كاملًا.. أنتم تقومون بواجبكم، فتضحون بأرواحكم وهو ما يؤهلكم لأسمى آيات الفخر والشرف! الواجب أن نكافئ كل جندي منكم بوسام «الصليب الحديدي».. لكن قبل كل شيء يجب اختراق صفوف الأعداء في «فلانديرز»، وتطويقها من الشمال، وبعد هذا نخترقها حتى نصل لـ «باريس».

كنت أرغب بشدة في معرفة كيف يتصور حدوث مثل تلك الأمور التي تنتمي لعالم الخيال، لكنني لم أطق الانتظار أكثر، فاستئذنت بالانصراف، وبينما هممت بالرحيل دسّ في جيبي بعض السجائر على سبيل الهدية، وقال وهو يربّت على كتفي:

- عمومًا نحب أن نسمع أنك قد قمت بأعمال مجيدة في الجبهة، ترفع من شأنك يا بُني..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تخيلت أن إجازتي ستسير بطريقة مختلفة..

كانت مختلفة عن هذا بالعام السابق، لكن يبدو أنني تغيرت خلال تلك الفترة، ودبت هوة تفصل ما بين تلك الفترة وبين الحاضر. ففي ذلك الوقت لم أكن أعرف شيئًا عن الحرب ومجرياتها، فقد كنا في خنادق هادئة لا تصل لها نيران العدو..

لكنني تغيرت!

تحطمت وانسحقت!

والأسوأ أن هذا قد حدث دون أن أشعر به حتى..

لم أعد أنتمي للمحيطين بي كما كنت، بل تحولت لكائن غريب لا ينتمي لهذا العالم..

هناك من يهتم بإلقاء الأسئلة عليّ، وهناك من لا يهتمون بالسؤال، لكن من لا يهتمون هؤلاء مجرد مغرورون يعتقدون أنفسهم خبراء في كل شيء..

صرت أفضل أن أكون وحيدًا، فكل الناس لا يطرقون إلا موضوع الجبهة وأحواله.. ويبالغون في شرح آرائهم ووجهات نظرهم أمامي، بما لا يثير بداخلي إلا الغضب والاشمئزاز.

كلما رأيتهم بداخل منازلهم ومكاتبهم وأشغالهم أشعر بحافز يغالبني ويشدني نحوهم، فأتوق

للبقاء معهم، ونسيان الحرب مثلهم، لكنني لا ألبث أن أشعر بالنفور منهم، فأشعر بالضيق من هذه المعالم.. لا أفهم كيف تمتلئ حياة المرء بمثل تلك التفاصيل ويتحملها، بينما بالحرب تمر شظايا القذائف من فوق الخنادق، ويتم حمل الجرحى على نقالات، ويجثم الرجال في زوايا الخنادق؟

تشعر أنهم هنا رجال مختلفون عنا، فلا أقوى على فهمهم. أحسدهم وأحتقرهم بنفس الوقت، والأفضل لي أن أفكر في «ألبرت» و»كروب» و»موللر» و «كات» و «جادن».. ترى ماذا يفعلون في هذه اللحظات؟ لابد أنهم جالسون بالمقصف الآن، أو يستحمون بالقناة، فقريبًا سيذهبون للميدان ثانية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلست داخل غرفتي الخاصة، على مقعد جلدي من الطراز ذي الذراعين، وقد تكومت على الجدران من حولي العديد من الصور التي قمت بقصها من المجلات والصحف، فألصقتها فوق الجدران.. وفي الناحية الأخرى تراصت رفوف الكتب التي حملت كتبي الدراسية بجانب المجلدات الأدبية القديمة التي تمكنت من شراء بعضها من مالي الخاص، أو استعرت البعض الآخر ولم أتمكن من رده لصاحبه من شدة إعجابي بها ورغبتي في الاحتفاظ بها للأبد..

رغبت في استعادة ذكريات تلك الفترة، وأن أشعر بأنني لا أزال أنتمي لمحيط الشباب كما كنت قبلًا.. لم يتغير محيط الغرفة في الظاهر، لكنني كنت أتشوق للإحساس بتلك العاطفة القديمة التي كانت تقودني وتدفعني وتجيش بداخلي كلما طالعت تلك الكتب، فيضرم بداخلي تطلعًا للمستقبل ورغبة في استباق الحوادث وتعجل ما سيأتي بالغد..

جلست منتظرًا الغرفة أن تنطق، وأن أشعر بكوني جزءًا منها، وأن تترك بنفسي من الأدلة ما يجعلني واثقًا أن ذكريات تلك الحرب الكريهة لن تلبث أن تختفي من عقلي بمجرد انتهائها، فلا يبقى داخل ذهني سوى صور تلك الحياة المنزلية فتستولي على كل حواسي.. أخذت أنظر لتلك الكتب متوسلًا إليها أن تتحدث معي، تضمني إليها، لكن لا شيء حدث.. انتظرت طويلًا، بينما أخذت الصور والذكريات تركض داخل عقلي، لكنها كانت مجرد خيالات وقتية تختفي بعد قليل..

لم يمر بي ما كنت أنتظره من شعور، فساورني القلق، وشعرت بنفسي غريبًا عن المكان، ولم أستطع استعادة طريقي عائدًا لما كنت عليه.. وجدت نفسي مقصيًا عنه، بالرغم من محاولاتي للاندماج والعودة لحالي السابق..

تجمدت في مكاني، وقد انطوت صحائف الماضي القديم أمام عيناي، فضاق صدري ونهضت لأتناول كتابًا لأطالعه، فرحت أقلب صفحاته.. لكنني لم ألبث أن رميته من يدي لأتناول غيره، قبل أن يلقي مصير أخيه، وأخذت أقلب في الكتب والصحف والمجلات واحدًا بعد الآخر، دون أن أستقر على واحد منهم يجذب انتباهي..

تسمرت بمكاني صامتًا منقبض النفس، فلم تتضمن الكتب والمجلات سوى كلمات بلا فائدة..

لم تصل كلماتها لأعماقي أو تخترق وجداني.. أعدتها بالنهاية مكانها وقد يئست من العثور على مرادي، قبل أن أغادر الغرفة بالكامل بغير رجعة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم ينقطع أملي بالرغم من هذا، فقد أخذت أقول لنفسي أني حين أمضي بضعة أيام بجو غرفتي، فهذا ليس كافيًا لكي أحكم في الموضوع بشكل نهائي، وسيتوفر أمامي بالمستقبل المزيد من الوقت لكي أتفرغ فيه للتركيز مع هذه المسألة.

ذهبت لزميلي القديم بثكنات الجيش «ميتلستاد» وجلست معه داخل غرفته، فما كاد يستقر بي المجلس عنده، حتى أخبرني بشيء كان له وقع الصاعقة عليّ، فقد بلغني أن ناظر مدرستنا السابق «كانتوريك» قد تم تجنيده بصفوف «ريديف»، لتلبية حاجة الطوارئ المحلية!

هتف رفيقي وهو يناولني سيجارة:

- ما كدت أصل هنا من المستشفى حتى رأيته، وسرعان ما كان يبسط يده ذات المخالب نحوي وهو يقول:

- أهو أنت يا «ميتلستاد» ؟ كيف حالك يا بُني؟

نظرت نحوه مجيبًا:

- أيها السيد «كانتوريك».، الجد جد، والهزل هزل، ولابد أنك تعرف أني ضابط بالجيش، فلابد لك أن تقف منتصب القامة باحترام عند مخاطبتي!

كنت أتمنى لو أنك رأيته وقتها، فقد حاول أن يتودد لي، لكنني خاطبته بخشونة متعمدة وبلهجة أشد، وهنا ألقى بآخر سهم لديه فقال:

- أتحب أن أستخدم نفوذي في عقد امتحان لك؟؟

وهنا هجت حينما وجدته لا يزال يتمسك بتلك السخافات القديمة، فأجبته:

- أيها النفر» كانتوريك»، منذ عامين خطبت فينا تحثنا على التطوع، وكان من بيننا زميل لم يكن يرغب في الالتحاق بالجيش وهو «جوزيف بيهام»، وقد قتل قبل أن يحل موعد تجنيده بثلاثة شهور، ولولا كلامك لكان حيًا مثل تلك المدة على الأقل، والآن أرجو أن تنصرف من أمامي، وفيما بعد ستسمع مني!

وبعد ذلك كان سهلًا على أن أترأس كتيبة، وأول شيء فعلته هو أني ذهبت به للمخازن، وقمت بتزويده بمهمات تناسبه، وستعرفها خلال دقيقة!

خرجت مع «ميتلستاد» بعد هذا الحديث لميدان التدريب، فاصطفت الكتيبة وبدأ «ميتلستاد» يفتشها.. بمجرد أن رأيت «كانتوريك» وسطهم حتى انطلقت ضحكاتي دون أن أقدر على كبتها، فقد كان يرتدي ثيابًا فضفاضة زرقاء اللون في الأصل، لكن حال لونها وتوسخت أكمامها، وظهر عليها بقع سوداء كبيرة..

كان «التزلك» الأسود البالي لا يكاد يغطي سيقانه، والحذاء ذو المقدمة المقوسة أضخم من أن تتحمله قدماه.. ولكي يكون التناسق تامًا في هذه الملابس المضحكة وضعت قلنسوة على رأسه، لكنها بدت شديدة الاتساخ والضيق فلا تكاد تستقر فوق رأسه. كان منظره جُملةً داعيًا للإشفاق..

وقف «ميتلستاد» أمامه قائلًا:

- أيها النفر «كانتوريك»، هل هذه الأزرار لامعة؟ يبدو أنك لن تتعلم أبدًا، فأنت مقصر يا «كانتوريك» ! شديد التقصير!

كدت أطير ابتهاجًا، فقد اعتاد «كانتوريك» أيام المدرسة أن يؤنب «ميتلستاد» بنفس تلك الكلمات، صارخًا فيه: «أنت مقصر يا «ميتلستاد» ! شديد التقصير!

استمر «ميلستاد» في توبيخ «كانتوريك» قائلًا:

- انظر ل. «بوتشر» ! لم لا تقتدي به؟

لم أكد أصدق عيني، «بوتشر» بالكتيبة كذلك؟

«بوتشر» الذي كان بواب المدرسة؟ وقد أصبح مثلًا يقتدي به «كانتوريك» ؟

صوب «كانتوريك» نحوي نظرات قاسية شعرت بها تخترقني فتشعل النيران في، لكنني نظرت له ببراءة كأنني لم أره من قبل..

لم يبد لي شيئًا مثيرًا للضحك مثل منظره بتلك الملابس الغريبة، والأغرب أن هذا الرجل الذي كان يجعلنا نقف أمامه مكروبين محرجين وهو يتربع على كرسيه كأنه ملك على عرشه، فكان يصوب نحونا قلمه كحربة، ويقوم بتعنيفنا على أقل الأخطاء التي تبدر منا في تصريفات الأفعال في مادة اللغة الفرنسية، التي تحسن مستوانا فيها فيما بعد عندما تقدمت صفوفنا داخل فرنسا..

بالرغم من أن هذا حدث منذ عامين،إلا أنه ماثل داخل ذاكرتي كالبارحة وها هو النفر «كانتوريك» الذي سامنا العذاب يقف خانعًا أمامنا وقد انهارت سطوته وانكسرت شوكته، فالتوت ساقه داخل هذا الهندام المثير للضحك..

سبحان مغير الأحوال!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ووجه «ميتلستاد» أوامره للكتيبة لتقوم ببعض التدريبات، وقام بتعيين «كانتوريك» قائدًا لهم على سبيل التعاطف، وخلال ذلك التدريب يسير القائد على بعد عشرين خطوة أمام الكتيبة، فإذا صدرت أوامر بالالتفاف، دارت الكتيبة للخلف.. لكن قائدها يجد نفسه فجأة وقد صار على بعد عشرين خطوة خلفها، فيندفع للأمام لإدراك الكتيبة بخطوات مضاعفة ويستعيد مكانته ثانية على بعد عشرين خطوة أمامها، مما يعني أن يضطر لقطع مسافة أربعين خطوة بسرعة مضاعفة، لكنه ما يكاد يصل لمكانه حتى يصدر الأمر بالالتفاف ثانية، فيضطر القائد مرة أخرى لأربعين خطوة ليدور خلفًا في حين أن القائد يتقدم نحو الأمام وللخلف وقد صار مضحك الشكل.

كان «هينلستوس» بارعًا في التفنن في تلك التدريبات!

لم يكن بوسع «كانتوريك» أن يتوقع شيئًا آخر من «ميتلستاد»، فقد أضاع عليه ذات مرة فرصة الانتقال لسنة دراسية أخرى، ولو لم ينتهز «ميتلستاد» مثل تلك الفرصة الذهبية ليظفر بثأره منه، قبل أن يعود لميدان القتال، لصار مغفلًا من الدرجة الأولى!

فالإنسان ليموت وقد قرت عيناه بعد أن يروي غليله من عدوه مغتنمًا مثل تلك الفرصة التي أعطاها له الجيش!

اندفع «كانتوريك» خلال ذلك الوقت للأمام والخلف كخنزير وحشي.. بعد فترة أوقف «ميتلستاد» ذلك التدريب، وبدأت التدريبات الأكثر أهمية وهي تدريبات الزحف.. زحف «كانتوريك» على يديه وركبتيه حاملًا بندقيته فوق الرمال، وقد بدأ يتنفس بصعوبة، وهو ما بدا لنا كأنغام الموسيقى، فأخذ «ميتليستاد» يستحث النفر «كانتوريك» قائلًا نفس العبارت التي اعتاد «كانتوريك» أن يتشدق بها في المدرسة، فقال:

- يا نفر»كانوريك»! لحسن حظك أننا في عهد مجيد! يجب أن تتجلد وتقهر الشدائد!

زحف العرق على وجه «كانتوريك» وقد بدا كأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، فبصق شذرة خشب قذرة تسللت بين أسنانه أثناء الزحف، فانحني «ميتلستاد» فوقه مؤنبًا:

- يجب الصبر على ما نتعرض له من مصاعب وعقبات!

بعدما انتهت التدريبات، صدرت الأوامر ل.»كانتريك» و»بوتشر» أن يقوما بجر العربة اليدوية والانطلاق للمخبز لإحضار الخبز اللازم للثكنات..

لم تكد تمر بضع دقائق حتى بدأ الاثنان في دفع العربة، وقد أطرقت رأس «كانتوريك» لأسفل ضيقًا وتبرمًا بما هو فيه.

يقع المخبز بنهاية البلدة، وهكذا يجب عليهما أن يقطعا البلدة بأكملها ذهابًا وإيابًا، فقال «ميتلستاد» باسم الثغر:

- لقد قاما بتلك المهمة مرتين، وبدأت الجماهير تنتظر عودتهما بفارغ الصبر..

هتفت ضاحكًا:

- أحسنت لكن كيف لم يتقدم «كانتوريك» بشكوى ضدك حتى الآن؟

- حاول فعلًا فعل هذا، لكن قائدنا أخذ يضحك منه حينما سمع بتلك القصة، ولم يكن القائد مستعدًا لتضييع وقته في سماع ناظر مدرسة، وغير هذا، فهناك صلة ودية تجمعني بابنته..

- ربما يحاول «كانتوريك» إلغاء امتحاناتك فيما بعد!

بهدوء أجابني:

- هذا لا يهمني أو يفرق معي، وغير هذا،شكواه لم تقم على أي أساس، فقد أثبت أني كنت أعهد إليه بواجبات خفيفة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

للأسف تكون الأجازة فترة انقطاع، فتفسد كل ما يأتي بعدها، فسرعان ما دب في نفوسنا شعور بقرب الابتعاد، أخذت أمي تراقبني صامتة، وإن دلت عيونها على الكثير مما يختلج بداخلها.. كنت أعلم أنها تحصي ما تبقى من أيام في أجازتي معهم، ولا يأتي بها النهار حتى تغمرها الكآبة، فالأيام تتناقص وتفر هاربة واحدًا بعد لآخر، وبالنهاية قررت إبعاد مُعداتي عن نظرها، فهي تكره مرآها لأنها تُذكرها بقرب رحيلي.

تمر الأيام سريعًا لو استسلم المرء للحزن والكآبة، هكذا غالبت شعوري وانطلقت مع أختي لنذهب للمجزر الحكومي لنحصل على رطل أو اثنين من العظام، الذين أصبح الحصول عليهم انتصارًا عظيمًا هذه الأيام.. كانت الناس تقف صفوفًا منذ الصباح الباكر أمام المجزر في الانتظار، وكثيرون كانوا يفقدون وعيهم من كثرة الوقوف والانتظار.. لكننا لم نوفق في مهمتنا، فبعدما انتظرنا لأكثر من ثلاث ساعات مُنينا بخيبة الأمل فقالوا أن العظام قد نفذت، وسرعان ما تفرقت الصفوف ساخطة..

لحسن الحظ أنني كنت أحصل على مؤونتي اليومية من الجيش، فكنت أعطيها كاملة لأمي، وهكذا تسنى لنا الحصول على طعام لا بأس به. تتالت الأيام متتابعة،وزادت النفوس توترًا، واشتدت هجمات الكآبة على أمي، فلم يعد باقيًا من الأجازة إلا أربعة أيام، فقررت أخيرًا أن أقوم بزيارة والدة»كمريخ»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا قدرة لديّ لوصف مثل هذا الموقف!

أعجز عن تخيل ما لابد أنه يدور داخل عقل تلك الأم الثكلي المرتعدة وهي تهزني قائلة:

- ما دام ابني مات، لماذا لا تزال حيًا أنت؟

اهتزت يدي دون أن أقوى على الرد عليها، بينما هي تستطرد:

- هل شاهدته؟ كيف مات؟ أخبرني!

أخبرتها أنه أصيب في قلبه برصاصة ومات على الفور، فتفرست في وجهي مرتابة قبل أن تقول:

- لا! أنت تكذب عليّ! أنا أعرفه أكثر منك! وأشعر بصميم قلبي أنه عانى الكثير من العذاب والأهوال قبل موته! قد سمعت صراخه وسط الليل! وسمعت أنّات ألمه، قل الحقيقة يا بني.. أريد أن أعرف! لا بُد أن أعرف!

أجبتها:

- لا! لقد كنت بجانبه.. صدقيني! لقد مات في الحال!

أخذت تستعطفني برقة:

- أخبرني أرجوك.. لابد أن أعرف! أنا متفهمة أنك تريد مواساتي والتخفيف عني، لكن ألا تري أنك بهذا الكلام تعذبني أكثر مما لو أخبرتني بالحقيقة؟ أخبرني كيف مات، فأنا لا أتحمل التمويه، ومهما كانت فظاعة ما ستقصه عليّ فسيكون وقعه أخف مما لو تركتني نهبًا لخيالي الذي سيحملني للجحيم يا بُني!

لكنني كنت قد أقسمت بيني وبين نفسي ألا أبوح لها بالحقيقة مهما حدث، وحتى لو مزقتني إربًا!

أجبتها متعلثمًا:

- أخبرتك ياسيدتي أنه مات في الحال، صدقيني لم يشعر بأي ألم، بل كانت تبدو لي سمات وجهه الهدوء التام.

صمتت قليلًا، قبل أن تقول بخفوت:

- هل تقسم على هذا؟

- أكيد!

- هل تقسم بكل ما هو مقدس عندك؟

وهل بقيَ ما هو مقدس عندي؟ هذه المسائل تضمحل في نظرنا كجنود بسرعة، فلم يعد هناك ما هو مقدس في نظرنا.. لكنني أجبتها بسريعًا:

- نعم، أقسم لكي أنه مات في الحال..

- وأنك تفضل ألا تعد حيًا لأهلك لو لم تكن هذه هي الحقيقة كاملة؟

كان لديّ استعداد لأقسم لها بأيّ شيء تريده، لكن يبدو أنها صدقت أقوالي بالنهاية..

أخذت تبكي وتتألم دون توقف، وعندما استفسرت مني عن كيف أصيب ابنها بتلك الرصاصة، اختلقت لها قصة لا أساس لها من الصحة..

عندما قمت بتوديعها قبلتني وأعطتني صورة لـ»كمريخ«، تمثله بملابس المتطوعين وقد استند على منضدة قروية مستديرة، عليها قدح من الجعة وخلفه ستارٌ رُسمت عليه غابة ندية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أتت ليلتي الأخيرة بالبيت، فغمرنا جميعًا الصمت!

أويت لفراشي مبكرًا تلك الليلة، ودفنت رأسي أسفل وسادتي، فمن يعلم متى ستأتي لي فرصة ثانية لأنام في فراش قطني بعد اليوم؟

جاءت أمي لغرفتي في آخر أجزاء الليل، فحسبتني نائمًا، وكنت أتظاهر فعلًا بالنوم، فلم تكن أعصابي تتحمل الحديث معها، أو البقاء مستيقظًا أمامها.. وجدتها تجلس على طرف فراشي صامتة رغم ما تكابده من مرض وآلام، فلم أطق صبرًا بالنهاية، وتظاهرت بكوني أستيقظ من نومي للتو، فقلت لها بصوت ناعس:

- اذهبي ونامي يا أمي، وإلا ستصابين بالبرد..

قالت:

- فيما بعد سأنال كفايتي من النوم.

جلست فى فراشي وقلت:

- لن أذهب على الفور للميدان يا أمي، بل سأمضي نحو شهر في معسكر التدريبات، وربما حالفني الحظ فتمكنت من الحضور لكم في يوم الأحد..

لزمت الصمت للحظات، قبل أن تسأل برقة:

- هل تخاف وأنت هناك؟

لا يا أمي..

- أريد أن أحذرك من نساء فرنسا، فهن غير مناسبات.

اوه يا أماه، لازلت طفلًا في نظرك، فلم لا يمكنني أن أدفن رأسي في حجرك لأبكي؟ ما الذي يجبرني على التشدد والتماسك أمامك؟ كم أرغب في الانهيار بالبكاء لأسمع مواساتك لي وتخفيفك من حزني.. لا أشعر بالواقع أنني ابتعدت عن دور الطفولة كثيرًا.. لم يزل بنطالي القصير معلقًا في غرفتي.. ما أقرب تلك الأيام من الآن. لم ذهبت وانتهت؟

لكنني تمكنت من إزالة كل تلك الخواطر جانبًا لأجيبها بهدوء:

- لا يوجد أي نساء بجانبنا يا أمي فلا تقلقي..

- ولا تنسي أن تحافظ على نفسك في الليل يا بُني..

لم لا يمكنني أن أضمك بين ذراعاي يا أمي العزيزة نموت الآن ينتهي كل هذا العبث؟ ما أتعسنا!

أجبتها:

- حاضر.. سأعمل بوصيتك يا أماه..

- سأدعو لك الله وأصلي من أجلك كل يوم يا «بول»..

أواه يا أمي! فلنمضي سويًا ولنعود لأيام الماضي.. لنمضي لتلك الأيام السعيدة لنبتعد عن كل هذا البؤس والشقاء الذي يطوينا بين جنباته! لنمضي حيث نكون أنا وأنت فقط!

قالت:

- ربما يمكنك أن تضطلع بأعمال أقل خطورة كذلك؟

- حاضر. لا تقلقي، من السهل أن أعمل في مطبخ الجيش..

- افعل هذا إذن أرجوك! لكن ألن يقول رفاقك شيئًا؟

- لا يقلقني هذا يا أمي..

تنهدت في خفوت، ولمحت شحوب وجهها حتى من وسط الظلام..

قلت لها بحنو:

- لابد أن تذهبي وتظفري ببعض النوم يا أمي، لأجل خاطري، ممكن؟

لم تجب، فنهضت ووضعت غطاء نومي فوق كتفها وسندتها على ذراعي، فشعرت بها تتألم. لذلك قمت بمرافقتها حتى أوصلتها لغرفتها، وبقيت معها لبعض الوقت.. قلت لها:

- أرجوك أن تهتمي بنفسك قليلًا يا امي.. لابد أن تستردي صحتك وقواكي أيمكنك أن تفعلي هذا من أجلي؟ أريد أن أعود لمرة القادمة لأجدك كما اعتدتك قديمًا..

ابتسمت بحزن تجيبني:

- حاضر يا بني..

- ولا ترسلي لي ما عندك من طعام يا أماه، فالأكل لدينا متوافر في الجيش.. سأحاول أن أرسل لكم بعضه لتنتفعوا به هنا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يالله! لشد ما بدت ضعيفة واهنة وهي ترقد أمامي في فراشها!

أيصدق أحد أن تلك الأم القوية الباسلة التي كانت تحبني من أعماق قلبها تتضاءل صحتها لتسحيل ذلك الكائن الواهن الذي أمامي الآن؟

بينما كنت أغادر غرفتها قالت بسرعة:

- لقد أعددت لك زوجًا من «الكلسونات» المصنعة من الصوف السميك، لتدفئك في وقت المساء، لا تنسي أن تأخذهما معك، فاهم؟

- لم فعلتي هذا يا أمي! أنا أعرف أنها كلفتك كثيرًا من المال! والكثير من الانتظار والترجي لتحصلي عليهما في مثل تلك الظروف!

ياالله! لم كتب على مفارقتك أيتها العزيزة الباسلة؟ من غيرك له حق في الاحتفاظ بي بجانبه؟

وقفت بجوار فراشها وهي راقدة في صمت، وقد اكتنفنا صمتٌ شديدٌ، بينما نفوسنا تعتمل بالكثير من الحزن والألم والكثير مما أردنا أن نتبادله ونتناقش فيه،لكننا لن نفعل..

- ليلة سعيد يا أمي..

- ليلة سعيدة يا بُني..

كانت الغرفة غارقة في الظلام،وتناهى لسمعي صوت تنفس أمي وصوت دقات الساعة، وبالخارج كانت الرياح تصفر لدي مرورها بورق الأشجار الذي يهتز متمايلا معها..

تعثرت راجعًا لغرفتي، لأجد أنني تعثرت بعدتي التي تم إعدادها لتكون موجودة جاهزة بالصباح، المفترض أنني سأغادر البيت بالصباح الباكر.. عدت لفراشي، فأخذت أعض وسادتي، وقد أمسكت بأعمدة الفراش بكل قوتي!

ماكان يجب أن أعود.. كنت بالجبهة ناسيًا كل تلكم العواطف يائسًا من كل شيء وقد تعودت على هذا، ولن أعود كما كنت بعد الآن!

أنا جندي!

لكنني الآن صرت مجرد كتلة من الألم والوجع على نفسي، وعلى أمي، وعلى كل ما هو رمز لليأس والقنوط..

ليتهم ما أرسلوني في تلك الإجازة اللعينة!

الفصل الثامن

تم إبلاغي من قبل بمكان المعسكر الذي سأمضي به شهر التدريب الذي سيتبع إجازتي، فقد تولى فيه «هيملستوس» تدريب «جادن» على الفنون العسكرية، لكنني ألفيت نفسي لا أعرف أي شخص ممن فيه.. كل شيء قد تغير كما هو معتاد، فلم أجد إلا بعض الرجال الذين أتيحت لي الفرصة لمقابلتهم في مواقف عرضية..

أخذت أؤدي الواجبات العسكرية بشكل آلي كما تعودت، واعتدت قضاء فترة المساء في «منزل الجنود» حيث توجد الصحف، لكنني وجدت نفسي عازفًا عن قراءتها، لكنني وجدت بالمكان بيانو، كنت أحب العزف عليه، ويشرف على الخدمة بذلك المكان فتاتين، أحداهما في مقتبل العمر.. كان المعسكر محاطًا بالأسلاك الشائكة المرتفعة، فكان يتوجب علينا في حالة عودتنا متأخرين للمعسكر أن نقوم بإبراز التصاريح اللازمة، لكن طبعًا من كانت لديهم صلة حسنة بالحراس فلم يكونوا يحتاجون لهذا.. على امتداد المعسكر تواجد سجن للأسري الروس، يفصله عنا سياج من الأسلاك الشائكة، لكنهم كانوا يتمكنون من الوصول إلينا على الرغم من كل تلك الأسلاك، وكانت هيئاتهم مخيفة!

كانوا ضخام الأجساد كثيفي اللحى، يبدون شديدي العصبية والعنف، لكنهم والحق يقال كانوا على جانب كبير من الاستكانة والخضوع.

كانوا يحومون حول معسكرنا فيلتقطون الفضلات الباقية من الطعام، ولو كنت تعتقد أن طعامنا هزيلٌ لا يسمن ولا يغني من جوع، فتخيل مدى تفاهة ما يتبقى منا من فضلات يتصارع عليها الأسرى إذن؟ كانوا ينبشون في القمامة والقاذورات ويتصارعون على ما يجدونه من شدة جوعهم وبؤس حالهم، فكانوا يستخرجون ما يتبقى بالعلب بشراهة، وكأنهم عثروا على كنز ضخم.

كان منظر أولئك الأسرى يدفعني للتفكير، فملامحهم يبدوعليها السذاجة الشديدة، وسمات وجوههم تشعرك أنهم مجرد فلاحون بؤساء الذين كانوا يجب أن يكونوا في هذا الوقت يحرثون الأرض أو يزرعون البذور فيها، وقد لاحظت عليهم معالم الطيبة كأنهم من فلاحينا بالضبط.. كان منظرهم وهم يمدون أيديهم لنا يستجدون ما يسدون به جوعهم يُثير في أعماق النفس أشد الحزن والإشفاق.. ضعفت أجسادهم ونحلت هيئاتهم، فنحن الجنود من الأصل كنا بالكاد نأكل ما يسد جوعنا، فلك أن تتخيل هيئة فضلاتنا التي يلتهمونها!

كان بعضنا يركلونهم بالأقدام، فيسقطون أرضًا، لكن هؤلاء كانوا قلة، أما أغلبيتنا كانوا لا يفعلون لهم شيئًا، وإنما يتجاهلون وجودهم.. كانوا يحضرون لمعسكرنا بالمساء، فيقومون باستبدال ما يملكونه ببعض الخبز، وكانت صفقات ناجحة في أغلب الأحيان.. كانت لديهم أحذية طويلة من الجلد القويّ الناعم، أما نحن فكانت رديئة خشنة. كان زوج الحذاء يباع مقابل رغيفين أو ثلاثة، أو مقابل رغيف وقطعة سجق..

لكن هؤلاء الروس فقدوا كل ما يملكونه منذ زمن طويل، فلم يكونوا يرتدون في ذلك الوقت إلا أسمالًا بالية تثير الشفقة بحالهم.. كانت الأدوات التي يبادلون بها هي بعض الأشياء التي

يصنعونها من بقايا المقذوفات النحاسية، وبالرغم من أنهم كانوا يجتهدون في صنع مثل تلك االأدوات البسيطة، إلا أنهم لم يكونوا يظفرون مقابلها إلا ببعض لقم الخبز فقط.

كان جنودنا الفلاحين شديدي المكر في تلك المساومات، فقد كان أحدهم يضع لقمة الخبز تحت أنف الروسي البائس، حتى يمتقع وجه ذلك الأخير جوعًا، وتجحظ عيناه، وسرعان ما كان يتنازل لمواطننا في تلك اللحظة عن كل ما يملكه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنت أكلف بحراسة أولئك الأسرى الروس كثيرًا، فكنت أراهم يتسللون في الظلام لحافة السور السلكي، فيسندون رؤؤسهم عليه، وقد وقفوا صفًا طويلًا جنبًا إلى جنب بعرض السور، يستنشقون الهواء العليل الذي يهب من جهة الغابات.. لم يكونوا يتحدثون إلا نادرًا، وشعرت أنهم أكثر أخوة منا وتعاطفًا فيما بينهم، لكن ربما كان سبب هذا لأنهم يشعرون بكونهم أسوأ حظًا منا، ومهما كان السبب، فالحرب قد انتهت بالنسبة لهم، وإن كانت حياة الشدة والمرض التي يرزخون فيها الآن ليست حياة تحبب للنفس!

وقفوا صفًا بامتداد السور السلكي، وكان أحدهم يبتعد ليأتي آخر يقف مكانه، وقد لزمهم السكون، فراح بعضهم يستجدي ولو عقب سيجارة منا!

كنت أرى أشباحهم وسط الظلام، وقد أخذت الرياح تعبث بأسمالهم البالية ولحاهم الطويلة، ولم أكن أعرف عنهم شيئًا غير كونهم أسرى.. وكان هذا أكثر ما يقلقني، فحياتهم بريئة لا تشوهها جريمة، ولو كانت قد أتيحت لي الفرصة للاتصال بهم ومعرفة أسمائهم وأنماط حياتهم، وما هي آمالهم وأحلامهم فغالبًا كان شعوري سيرق تجاههم وسيزداد عطفي عليهم..

أيًا كان، فقد كانوا في نظري رمزًا للخليقة المتألمة المعذبة، وصورة من أصدق صور البؤس، ودليل حي على مدى قسوة الإنسان ووحشيته الضارية!

مجرد كلمة جعلت من أولئك البؤساء الصامتون أعداء لنا، وكلمة أخرى قد تجعلهم أصدقاءنا..

تلك الوجوه التي تشع طيبة وسذاجة مساقة لتلك الحرب اللعينة وبلاؤها رغم إرادتهم، فما أحوجنا نحن، ونحن نمر بنفس الموقف، أن نشفق عليهم وننتزع ما في نفوسنا من حقد نحوهم وما نُضمره من شر تجاههم.. لكننا رغم هذا لا نتردد في سفك دماء بعضنا البعض، لو حدث واستعادوا حريتهم.. جزعت من كل تلك الخواطر، فلم أترك نفسي نهبا لها، فلو فعلت ستقودني نحو هوة سحيقة، فليس هذا هو الوقت المناسب لها!

لن أنسها، لكنني كذلك لن أسمح لها بالسيطرة عليّ، وإنما سأحتفظ بها بداخلي حتى تضع الحرب أوزارها.

تزايدت دقات قلبي، فقد وجدت بتلك الهواجس الوجهة التي أقصدها، والغاية السامية التي كنت أتطلع لها وأنا بالخنادق.. وجدت في هذا التفكير العامل الوحيد لتوطيد الحياة بعد هذه الغشية التي محت كل المشاعر الإنسانية..

وهي غاية عظيمة لو تمكن الإنسان من تكريس نفسه لها، وجديرة بمثل هذه السنوات المرعبة..

أخرجت ما معي من سجائر، فقسمت كل واحدة منها نصفين، وأعطيت الكمية كلها للأسري

الروس، فلمحت رؤوسهم تنحني لي، قبل أن يشعلوها.. شاهدت نقاطا متوهجة حمراء تتألق وسط الظلام، فتعلو حينًا وتنخفض حينًا آخر، ووجدت فى هذا عزاء لنفسي، وقاتلا لهواجسي ولو لبعض الوقت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كل يوم يموت واحد من الأسرى الروس!

مات أحدهم ذات صباح كثيف الضباب، وكنت وقتها أقوم بالحراسة..

تولوا دفنه في وجودي، وراحوا يتلون نشيدا جنائزيًا مؤثراً، ولم تكد تمر بضع دقائق حتى كانوا قد دفنوه.. وفي نفس المساء وجدتهم يصطفون وراء السور كعادتهم، يحاولون استنشاق هواء الغابات بقدر استطاعتهم..

توالت الأيام بنا، وتعرفت على بعضهم ممن كانوا يفهمون قليلاً من اللغة الألمانية، ومن بينهم كان هناك رجلًا قال أنه كان عازفًا على الكمان ببرلين، وعندما عرف أنني أعزف على البيانو أحضر كمانه وبدأ يعزف، فجلس رفاقه أرضًا من حوله، وقد أسندوا ظهورهم إلى السياج..

وقف العازف يسكب ألحانه، وقد ظهرت على سمات وجهه نظرة شاردة كالتي تبدو على وجوه عازفي الكمان وتشعرك أنهم صاروا بعالم آخر..

أخذ يعزف أغاني من تراثهم الشعبي، فانطلق الباقين يرددون الكلمات وراءه.. ثم توقفت فجأة أصواتهم، وانطلق الكمان وحده يشع ألحانه الشجية، التي تبعث في النفس مختلف الأحاسيس والمشاعر، من النشوة والسعادة، للحزن والاكتئاب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يعطوني إجازات أيام الآحاد بحجة أنني حصلت على إجازة طويلة للتو، فجاء أبي وأختي لزيارتي يوم الأحد الأخير السابق لذهابي للميدان لتوديعي..

قضينا جزءًا من النهار في «منزل الجنود»، وقرب الظهر انطلقنا نتجول حول الغابات.. كانت ساعات ثقيلة الوطأ علينا جميعًا، فلم يكن هناك ما نتحدث حوله إلا أمي ومرضها.. والأسوأ أن الأطباء أعلنوا أنها مريضة بالسرطان!

أخذت للمستشفى وسيتم إجراء عملية لاستئصال الورم قريبًا.. يقول الأطباء أنهم يأملون في شفائها بعد العملية، لكن هل هناك من سمع بمن نجا من هذا المرض اللعين؟

- في أي مستشفى هي يا أبي؟

- مستشفى»لويزا»..

- بأي درجة؟

- الثالثة، وهي نفسها من طلبت هذا، لأنها تحب أن تجد من يؤنسها، كما أن تلك الدرجة الثالثة أرخص كثيرًا في التكلفة، وحتى الآن لم نعرف كم ستكون تكلفة إجراء العملية..

- أي أنها ترقد في مكان مفتوح مع الكثيرين! ليتها تستطيع أن تظفر ببعض النوم المريح..

هز أبي رأسه، وقد بدا وجهه في تلك اللحظة مليئًا بالتجاعيد، فالمرض قد لازم أمي منذ فترة

طويلة، ولم يفارقها! والأسوأ أنها لم تذهب للمستشفي إلا بعدما أرغمتها شدة المرض على هذا.. فمرضها قد استنفذ مالاً كثيرًا، فصارت حياة أبي مكرسة للإنفاق عليها والعناية بها.

قال أبي:

- أتمنى لو استطعت معرفة أجر تلك العملية!

- ألم تسألهم؟

- لم أسأل بطريقة مباشرة، فلو فعلت هذا سيتردد الجراح في قبول القيام بها، وأنا لا أريد هذا.. يجب إجراء تلك العملية لها مهما كان الثمن!

فكرت في مرارة أن هذا ما يحدث دومًا، وغالباً ما يحدث للفقراء.. فهم لا يجرؤون على السؤال عن تكلفة العملية مثلاً، لكن يرهقون أذهانهم بالتفكير فيها وفي الكيفية التي سيجمعون بها المبلغ.. أما الأثرياء الذين لا يبالون بالتكلفة، فيستفسرون عن الأجر بكل بساطة، كما أن الأطباء وقتها لا يترددون ولا يحملون سؤالهم على محمل آخر ظلمًا..

قال أبي بمرارة:

- تكاليف «الغيار» بعد العملية ستكون ضخمة للغاية!

- وهل عندك مال كافي لكل هذا؟

سألته بإشفاق، فأجاب:

- حاليًا لا، لكنني أسعى لمضاعفة عدد ساعات عملي..

كنت أتوقع شيئًا كهذا!

سيضطر للعمل المتواصل حتى منتصف الليل، دون أن يتناول طعامًا إلا شيئًا زهيدًا قرب الساعة الثامنة مساء، قبل أن يواصل عمله المتعب.. حاولت التخفيف عنه، فبدأت أقص عليه ما يحكيه الجنود على بعض من قصص ودعابات.. بالنهاية اصطحبت أبي وأختي للمحطة، فقدما لي علبة من المربى وسلة من الكعك الذي صنعته أمي خصيصًا لي..

وبعد أن انطلق بهما القطار عائدًا، رجعت للمعسكر..

بالمساء التهمت بعض الكعك مع المربى، لكنني لم أجد بنفسي شهية، ففكرت في إعطاء الباقي للأسرى الروس.. لكنني تذكرت كم تكلفت أمي لتصنعها بنفسها، ولا بُد أنها تحملت الكثير من الألم أمام الموقد لتصنعها بيديها، فعدلت عن فكري، واكتفيت بإعطاء الأسرى كعكتين فقط منها..

الفصل التاسع

ظهرت الطيارات بالأعلى من فوقنا بينما نحن نقطع رحلتنا التي استغرقت أيامًا، ومررنا بالعديد من خطوط النقل التي تكدست فيها المدافع بعضها فوق بعض، قبل أن ننتقل بالسكة الحديدية الخفيفة..

أخذت أبحث عن كتيبتي، لكن لم يعرف أحد عن مكانها شيئًا.. دُرت باحثًا عنهم طيلة الليل، وقد حملت مؤونتي، وأستقي معلومة من هنا ومعلومة من هناك، قبل أن أنطلق مستأنفا رحلتي وقد حملت عدتي وبندقيتي..

عرفت بعد ذلك أنها صارت من الكتائب الطائرة التي يتم توجيهها حيث يشتد القتال، فلم تسرني تلك الأنباء..عرفت كذلك أنهم مُنيوا بخسائر جسيمة في العدد، وعندما سألت عن «كات» و»ألبرت» لم أصادف من يعرف عنهما شيئًا..

أخيرًا، وبعد بحث شاق، حصلت على معلومات مؤكدة بخصوص مكانهم!

انطلقت ذات أصيل لمكتب القيادة، حيث حجزني الضابط المنوب، وأخبرني أن الكتيبة ستعود من الجبهة خلال يومين، فلا حاجة لهم بضمي إليها الآن.. بعد ذلك سألني:

- كيف كانت إجازتك؟ هل استمتعت بها؟

أجبته مطرقا للأرض:

- إلي حد ما.

تنهد قائلاً:

- أفهم، الإجازة رائعة لو لم يضطر المرء منا للعودة منها.. شبح العودة هو ما يفسد الأيام الأخيرة فيها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتظرت عودة الكتيبة بالصباح الباكر، ملطخين، متألمين، وضجرين..

انطلقت ابحث بين أفرادها عن رفاقي، فعثرت على «جادن»، «كات»،»كروب»،و»موللر» أخيرًا! وضعنا أسرتنا بجوار بعضها كما اعتدنا من قبل.. كنت شديد القلق كلما نظرت لهم، دون أن أعرف لهذا القلق سببًا..

أحضرت لهم ما تبقى معي من كعك ومربي فوزعتها عليهم فتناولوها شاكرين، وبمجرد أن أخذ «كات» أول قضمة حتى هتف:

- هل أمك هي من صنعتها؟

- نعم هي..

- لذيذة.. لقد ميزتها من مذاقها!

كدت أبكي، ولم أتمكن من كبت مشاعري أكثر من هذا.. لكن يجب أن أتمالك نفسي، يجب أن أعود لسابق حالتي طالما أنا مع «كات» و»ألبرت»..

همس «كروب» قبل أن يروح فى النوم:

- أنت سعيد الحظ، فيقال أننا سنذهب إلى «روسيا»..

«روسيا»! لكن الحرب فيها ليست على أشدها.. لماذا سنذهب هناك؟

تعالى قصف المدافع في تلك اللحظة، التي تدوي بالجبهة، فاهتزت على أثرها جدران الكوخ الذي يضمنا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدأت الاستعدادات على أشدها، فصدرت أوامر مشددة بتفتيشنا تفتيشا دقيقًا،وتم استبدال ما معنا من أدوات عتيقة ممزقة بأخرى جديدة لامعة، فكان من نصيبي أن أحظي بسترة جديدة، بينما تصادف حظ «كات» أن ينال ملابس كاملة..

سرت بين الصفوف إشاعة عن كون الحرب أوشكت على النهاية، لكن بقيت إشاعات ذهابنا لروسيا هي الأقرب للمنطق، لكن لو كان خبر روسيا هو الصحيح، فلم قاموا بإعطائنا تلك الملابس الجديدة إذن؟

وبالنهاية ظهرت الحقيقة، فعرفنا أن الإمبراطور قادم لاستعراضنا، وهذا هو السبب في تلك الاستعدادات.. مضينا ثمانية أيام كاملة في الإستعداد والتدريب والتنميق لتلك الزيارة، حتى ضقت ذرعا! ويلات الجبهة أهون وأخف وقعًا على نفوسنا من هذا السخف المصطنع!

حلت أخيرًا اللحظة المنتظرة، فاصطففنا صفوفا متساوية، بينما بدأ الإمبراطور يمر من بيننا..

شعرت ببعض خيبة الأمل، فقد ظننته سيبدو ضخم الجسد كما يظهر في الصور التي تنشرها الصحف، لكنه بدا أضأل جسدًا، أضعف بنيانًا، وأرعد صوتًا مما كنا نتوقع..

قام الإمبراطور بتوزيع بعض الأوسمة، قبل أن يتبادل بعض الجمل القصيرة مع هذا ومع ذاك، ثم لم تلبث الصفوف أن انفضت بالنهاية..

بعدما انتهت الزيارة تبادلنا بعض الحديث حول جدوى هذه الزيارة، فهتف «جادن» مندهشا:

- هذا هو الإمبراطور العظيم إذن؟ هذا هو من يحب أن يقف كل إنسان امامه منتصب القامة معتدل الأعضاء؟ هل يقف «هاندنبورج» أمامه مثل تلك الوقفة؟

- أكيد.

أجابه «كات»، لكن «جادن» لم يقتنع، فدارت مناقشة بين الاثنين حول تلك المسألة، وقال «كات» بالنهاية:

- المهم أن نقف نحن أمامه منتصبين متصلبين..

لكن «جادن» بقي مندهشا، وجمح الأمر بخياله بعيدًا فقال:

- لحظة! وهل يذهب الإمبراطور للحمام كما نذهب؟

- وهل تظن شيئًا آخر يا أبله؟

- يبدو أن سحابة من أمعائك قد هاجمت عقلك يا «جادن»، فأرجو منك أن تسرع بالذهاب للحمام حتى يصفو عقلك من مثل هذا التفكير، وتوقف عن كلام الأطفال هذا!

سمع «جادن» النصيحة وقام بتنفيذها، على ان «البرت» قال بعد قليل:

- أريد أن أعرف شيئًا يارفاق، هل كان يمكن الا تقوم الحرب لو ان الإمبراطور قد قال:لا؟

اجبته:

- انا متأكد من أن الحرب كانت ستقوم بالرغم من هذا، فالامبراطور كان عازفا عنها في البداية..

- ولو ان حوالي عشرين او ثلاثين رجلاً من حول العالم، غير الإمبراطور، قد قالوا» لا»، فهل كانت الحرب ستقوم بالرغم من كل هذا؟

أجبته في ضيق:

- ربما.. لا أعرف، لكن لا أعتقد.. لكنهم على كل حال قد قالوا»نعم»لسوء الحظ..

استطرد»كروب»:

- يبدو الموضوع غريبًا لو تفكّر المرء فيه قليلًا، أفلسنا هنا للدفاع عن وطننا؟ والفرنسيون على الجانب الآخر للدفاع عن وطنهم كذلك؟ فمن منا على حق إذن؟

أجبته دون أن أؤمن حقاً بما اقوله:

- ربما كان كلانا محقا..

استطرد «ألبرت»:

- أوك، لكن لماذا يقول كل مدرسينا وقساوستنا وصحفنا أن الحق في جانبنا نحن فقط؟ أتمنى أن يكونوا مُحقين، لكن ماذا ستقول لو عرفت أن مدرسين الفرنسيين وقساوستهم وصحفهم تقول نفس الكلام لهم؟

أجبته هازا كتفي:

- لا أعرف.. وعمومًا أيا كان الحق في جانب من، فالحقيقة هي أن الحرب تدور بالفعل، وكل شهر يمر يضيف دولًا جديدة للطرفين!

رجع «جادن» من حيث كان، فأدلى بدلوه في الحديث، وأخذ يسأل كيف نشبت الحرب من الأساس.. فرد عليه «ألبرت» بلهجة العليم ببواطن الأمور:

- تقوم الحرب غالبًا بسبب اعتداء قطر على قطر آخر..

سأله «جادن» متظاهرًا بالغباء:

- لا أفهم كلامك.. كيف يمكن لجبل في ألمانيا مثلا أن يهجم على جبل في فرنسا.. ونفس الكلام ينطبق على الغابات والأنهار والأراضي الزراعية..

أجابه «كروب»بغيظ:

- يالك من غبي! هل تمزح؟ لم أعن الكلمة حرفيًا.. أقصد الاعتداء! اعتداء الناس على بعضهم البعض..

هزّ «جادن» كتفيه بلا مبالاة قائلًا:

- إذن لا علاقة لي بذلك، فلم أشعر باعتداء أحدهم عليّ..

قطب «ألبرت» حاجبيه مستاءً وهو يجيبه:

- لا تقلق، فلا حاجة لأحد بالاعتداء على متشرد مثلك..

قال «جادن» على الفور:

- إذن يمكنني العودة على الفور لبلدي؟

انطلقنا جميعًا بالضحك، فقال «موللر»:

- إنه يعني يا أحمق اعتداء على الشعب في مجموعة.. الدولة كلها بمعنى أصح هي التي يقع عليها الاعتداء..

أجابه «جادن» بخبث:

- الدولة؟ بمعني آخر رجال الشرطة والجنود.. لو كان هذا مقصدك فعلا، فاعفني من استكمال هذا الحوار..

قال «كات»مبتسمًا بمرارة:

- معك حق..لأول مرة بحياتك تقول كلامًا صحيحًا يا «جادن».. الدولة شيء والشعب شيء آخر..

أجاب «كروب»:

- خطأ! إنهما شيء واحد، فبدون الدولة لا وجود للشعب..

- ربما كان هذا صحيحًا، لكن لا تغفل حقيقة أن معظمنا من البسطاء، ولا بُد أن أغلب الفرنسيين مثلنا.. فما الذي يدفع حدادًا فرنسيًا أو عاملًا فرنسيًا أن يعتدي علينا؟ الحكام هم السبب في كل هذا الوبال! لم أكن قد رأيت بحياتي فرنسيًا واحدًا قبل مجيئي للميدان، ولا بُد أن نفس الشيء ينطبق عليهم.. فالشعب الفرنسي لا شأن له بالحرب مثل الشعب الألماني..

هز «جادن»كتفيه مجيبا:

- لابد من أن هناك من يستفيدون من تلك الحرب المشؤومة..

قال « جادن»:

- لست واحدًا منهم وهذا شيء مؤكد..

- لا أنت، ولا أي من البؤساء الموجودين هنا سيستفيد منها مثقال ذرة..

لكن «جادن»أصر أن يستمر الحديث في هذا الموضوع فاستطرد:

- من المستفيد إذن؟ مستحيل أن يكون الإمبراطور مثلا، فلديه كل ما يشتهي بالفعل.

أجابه «كات»:

- لا تكن واثقًا من هذا، فالبلد لم تمر في عهده بأي حرب قبل الآن، ولا بُد لكل إمبراطور لكي يثبت عظمته وقوته أن يخوض ولو حربًا واحدة على الأقل وإلا خمد ذكره وطواه النسيان.. عودوا لكتبكم المدرسية وطالعوها..

أردف «كات «:

- بل يشتهرون أكثر من الأباطرة أنفسهم..

عقب « ديترينج» بسخط:

- لا بُد من وجود آخرين لهم مصلحة من تلك الحرب..

علق «كروب «:

- فيما أظن، لا يخرج الموضوع عن كونه نوعًا من الحُمى.. كل امرئ رافض للحرب، لكن فجأة تشتعل نيرانها! نحن لا نريدها، ومثلنا يقول الآخرون، وبالرغم من هذا فهاهو العالم كله يكتوي بنارها..

قلت:

- تأمل الاكاذيب والأخبار المضللة التي يذيعها العدو عنا.. كلها كذب وافتراءات.. تصور أنهم يقولون أننا ناكل صغار البلجيكيين؟ أظن أن من ينشرون تلك الأكاذيب هم الجناة الحقيقيون وهم جديرون بالشنق..

نهض «موللر» من مكانه قائلًا:

- أيا كان، من حسن الحظ أن الحرب لا تدور رحاها بألمانيا نفسها، تأملوا ما تسببت فيه كل تلك القنابل والقذائف من دمار..

وافقه، جادن»:

- صح، لكن لو لم تكن هناك حرب من الأصل لكان خيرًا..

هتف» ألبرت» من مرقده فوق الحشائش بسخط:

- ما هو خيرٌ فعلا هو أن نتوقف عن الحديث في هذا الموضوع اللعين!

- سواء تحدثنا أم لا، فلن يغير هذا من الواقع شيئًا يا عزيزي..

كذا رد عليه «كات»..

ما زاد من غيظنا هو الأوامر التي جاءتنا بإعادة ما تلقيناه من ملابس جديدة وإرتداء أسمالنا القديمة الممزقة! فقد انتهت زيارة الإمبراطور فلم يعد هناك حاجة لها..

أعادونا للميدان بدلا من الذهاب لروسيا، وفي طريقنا له مررنا بجوار غابة دُمرت تماما، وقد تناثرت الحفر العميقة في جميع أركانها.. قال «كات»:

- لابد وأن هذا بسبب المدفعية الثقيلة..تأملوا تلك الشجرة..

رأينا بعض الأموات الذين علقت جثثهم في الشجرة التي يقصدها، ومن بينهم جندي عاري الجسد بالكامل باستثناء خوذته التي على رأسه، وقد اختفى نصفه السفلي فلم يعد باقيا الا نصفه العلوي فقط!

رأينا ذراعيه وقد انفصلوا عن باقي جسده، في حين تناثرت ملابسه هنا وهناك.. استنتجنا أن تلك المأساة لم تحدث منذ وقت طويل، لأن دماءهم لا تزال رطبة..

لم يكن بمقدورنا إلا إبلاغ فريق النقالات في أول محطة مرينا بها، فلم يكن من حقنا أن نتعدى على اختصاصهم..

تقرر إرسال فصيلة لتقوم باستطلاع مقدار قوة العدو، ولأنني شعرت بالشفقة على زملائي لشعور بالذنب ينتابني لكوني تركتهم عندما ذهبت لإجازة، فقمت بالتطوع للذهاب من ضمن فريق أداء تلك المهمة..

اتفقنا على الخطة، فتسللنا من بين أسلاك الأسوار، وزحف كل واحد منا بمعزل عن الباقين، وخلال دقائق معدودة كنت قد وصلت لحفرة قليلة العمق، فانحدرت بداخلها، وأخرجت رأسي منها مستطلعًا..

صحيح أن نيران مدافع الماكينات كانت تصب في كل الاتجاهات، إلا أنها كانت نيرانًا معتدلة، لكن هذا لا يمنع اضطرارنا للاحتماء منها في مثل تلك الحُفر..ارتفعت الصواريخ المعلقة بالفضاء من حين لآخر، فكانت تغمر الأرض بغلالة من الضوء الشاحب.. لا تلبث تلك الغلالة أن تنطفئ، فيسود ظلام شديد الكثافة.. كنا نسمع أن خنادق الأعداء تضم فرقًا سوداء الملابس، وهو ما يزيد من صعوبة مهمتنا، فإن لون ملابسهم سيجعل من العسير علينا أن نحدد مواقعهم، بالإضافة لهذا، فهم شديدي البراعة في التسلل والتنقل من مكان لآخر كأنهم مجموعة من الأشباح!

لكنهم كانوا بالرغم من كل تلك البراعة أغبياء، فولعهم بتدخين السجائر أنساهم مآخذ الحيطة والحذر.. كانوا يزحفون بينما السجائر المشتعلة تتدلى من أفواههم، مما جعل «كات» و»كروب» يتمكنون من اقتناص مجموعة منهم بالرغم من الظلام المخيم على المكان، دون أن يكلفهما الموضوع إلا تسديد بنادقهما تجاه السجائر المتوهجة التي تدلت من أفواه جيش الزاحفين ذاك..

انفجرت قنبلة بالقرب مني، فانتابني الذعر لأنني لم أحس باقترابها كعادتي..وبنفس الوقت شعرت بنفسي وحيداً وسط وحش الظلام المدلهم الذي أطبق ببراثنه على المكان بالكامل، فاستولى خوف غريب عليّ.. ربما راقبتني عيون وسط الظلام بينما أنا غافل هكذا من حفرة مجاورة! ربما أعدوا قنبلة لكي يقذفوها نحوي بالوقت المناسب لأتمزق أشلاء!

حاولت مقاومة كل تلك الأفكار الوحشية التي دارت داخل عقلي دون هوادة.. كنت أخبر نفسي أنها ليست أول مهمة استكشافية يتم تكليفي بها.. لكنها أول واحدة منذ عدت من إجازتي،

وبالإضافة إلى هذا كان كون تلك الأرض غريبة عني مصدر للقلق..

تمكنت من إقناع نفسي أن مخاوفي لا أساس لها من الصحة وإن هي إلا مجرد مهمة بسيطة مثل ما قمت بهم من قبل كثيراً.. فلا يوجد من يراقبني وسط الظلام، وإلا لكان قد هاجمني بالفعل، صح؟

حاولت دون فائدة أن ابعد تلك الخيالات الوحشية عن عقلي، فقد شعرت بأفكاري تختلط كحفنة من رمال الشاطئ يتم تقليبها.. وجدت الكثير من الصور المزعجة تتتابع في مخيلتي، فتصورت رؤية فوهة بندقية موجهة نحو صدغي، فتتبعني أينما ذهبت.. شعرت بعرقي يسيل على جبهتي وجسدي..

بقيت منحنيا داخل الحفرة..

رمقت ساعتي لأجد أن الوقت يمر ببطء شديد، وشعرت برغبة قوية تجتاحني للبقاء حيث أنا.. ثبت أطرافي على الأرض جيدًا، وكلما حاولت أن أرفع رأسي أو أحرك أي جزء من جسدي كنت أغوص أكثر داخل الحفرة فأبتعد عن حوافها أكثر فأكثر.. لكن تلك المشاعر الوقتية لم تلبث أن ذهبت في سبيلها، تاركة المجال لمشاعر الندم والخجل تنهشني من هذا الجبن الذي استسلمت له ولو لدقائق معدودة.. أنبني ضميري بشدة، وسرعان ما رفعت رأسي قليلا لكي أتمكن من إلقاء نظرة على ما حولي..

نظرت عبر الظلام الذي يكتنفني من كل جانب لفترة طويلة، وبمجرد أن لمحت قنبلة متوهجة تشق طريقها عبر الفضاء، حتى غصت داخل حفرتي من جديد!

ثار داخل نفسي صراع بين نصفين، أحدهما يريد مغادرة الحفرة في الحال، بينما الآخر يريد البقاء فيها محتميا بداخلها.. أخبرت نفسي أن هذا من تأثير الإجازة. وعندما شعرت بنفسي أكاد أفقد أعصابي أخذت أرفع جسدي تدريجيًا لأعلى، فبقيت معلقًا فوق الحفرة، نصف جسدي تحت سطح الأرض ونصفي الثاني فوقها..

سمعت خليط من الأصوات حولي، وسرعان ما قفزت داخل الحفرة من جديد، فمن السهل أن أميز الأصوات المريبة حتى لو كانت طلقات المدافع دائرة بلا انقطاع.. ركزت مع الأصوات، فوجدت بعضها يأتي من خلفي، ففهمت أن رجال جيشنا يتقدمون عبر الخنادق، وفجأة سمعت صوتًا مكتومًا ميزت فيه صوت رفيقي «كات»!

شعرت بسخونة تسري عبر صدري، فالأصوات المكتومة الصادرة من الخنادق الموجودة ورائي نقلتني من عالم الوحشة والفزع والخوف من الموت إلى عالم آخر من الطمأنينة والحياة! ولا جدال في هذا فهي أصوات رفاقي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

زحفت خارجًا من الحفرة ببطء، وسرعا ما كنت أتلوى بصمت كالثعبان، وأخذت أتطلع من حولي باذلًا قصارى جهدي لتذكر كل ما يمر بي من معالم لأحفظها بذاكرتي..أخذت أتطلع من حولي لأتعرف على أماكن توزيع نيران المدافع، ليتسنى لي العودة بسلام.. وأخيرًا حاولت الاتصال بزملائي..

تقدمت للمسافة طويلة، قبل أن أنعطف في خط منحني لم يقدني إلى حيث أريد، لكنني شعرت

بالاطمئنان لمجرد اقترابي من وجهتي.. لم أرد أن أتسرع بحركتي لئلا يحدث ما لا يحمد عقباه..

شعرت بخوف غريب يستولي عليّ، فلم أعد أتعرف على الطريق من حولي، فانسللت داخل إحدى الحفر بهدوء، محاولًا تحديد مكاني، لكي لا أفقد طريقي وأهبط في خندق آخر غير خنادقنا..

أرهفت حواسي منصتًا، محاولًا تمييز أي مكان أنا فيه، لكن الحفر تشابهت عليّ!

كان تشابهها هذا سببًا رئيسيًا في زيادة حيرتي وتخبطي، فشعرت بملامح الطريق الذي يتوجب على سلوكه تنمحي من أمامي، وعندما فكرت في الزحف داخل خط موازي لخطوطنا، خشيت أن أظل أزحف إلى ما لا نهاية، فاستقر رأيي على الانعطاف ثانية والتقدم في شبه دائرة.

زحفت على الأرض التي امتلأت شظايا حادة كالأمواس، محاولًا تحمل كل ألم يمر بي، فجأة انفجرت قنبلة، ثم تلاها انفجار قنبلتان!

انهمر بعدهم سيل من القذائف كالأمطار، بينما انطلقت مدافع الماكينات تصب نيرانها الحامية صبًا.. لم يكن أمامي إلا البقاء حيث أنا بقاع إحدى الحفر، واستنتجت من ذلك أن هناك هجوم أوشك على الحدوث، وطيلة ذلك الوقت ظلت الصواريخ تشق ستار ظلام الليل فتنطلق بعضها وراء بعض..

انكمشت بمكاني في حفرة ضخمة قد وصل الماء الذي بداخلها حتى خصري وقررت أنه لو حدث هجوم سأغوص داخل ذلك الماء الموحل، فلا يتبقى مني فوق السطح إلا أنفي وفمي..

صمتت النيران فجأة، ففعلت ما قررته، وغصت داخل المياه الساخنة التي أحاطتني وبقيت متجمدًا بمكاني، وكنت أحاول إرهاف سمعي لكل ما يصدر من أصوات، فسمعت بعض الأصوات تقترب، وبعض المعادن تصطك ثم مرت تلك الموجة مبتعدة عني فساد السكون من جديد.. ساورني خوف جديد، فماذا سيكون مصيري لو قرر أحد أفراد جيش العدو القفز فجأة داخل هذا الخندق، ورآني بالداخل؟

انتزعت خنجري بسرعة تحت الماء، فأمسكته بيدي في وضع الاستعداد، وقد قررت أن أقحمه في حلق أول من يقرر القدوم قبل أن يفيق من المفاجأة!

انطقت طلقات مدافعنا في تلك اللحظة، واستقرت إحدى القذائف بالقرب مني، فازدادت سخونة المياه، زاد سخطي وانطلقت أسب وألعن في سري، فلم يبق إلا أن أموت بطلقات مدافعنا!

استولت على نوبة من الجنون، لكنني لم يكن بيدي غير التوجع في صمت والدعاء أن أنجو من هذا المأزق.. دوى صوت القنبلة بالقرب من أذني حتى شعرت بها تقتحمها.. لو قرر رجالنا القيام بهجوم مضاد، لتكفل هذا بنجاتي، أًلصقت رأسي بالأرض محاولًا الإنصات بقدر إمكاني للرعود التي دوت بالمكان، قبل أن أرفع رأسي فأصغي للأصوات القادمة من أعلى بالسماء.. شرعت المدافع ترسل بقذائفها، وكنت أعلم أن أسوارنا الشائكة حصينة لا يسهل تدميرها.. بالإضافة لأن بعض أجزائها مشحونة بتيار كهربائي.. انهمرت رصاصات البنادق، فعرفت أن الأعداء لم يتمكنوا من اقتحام صفوفنا، فلم يكن أمامهم مفر غير التراجع..

غصت داخل الحفرة ثانية وقد شعرت بحواسي تخور، بينما ازدادت أصوات الزحف والاشتباك في أذني وضوحًا.. تسللت بين الحين والآخر أصوات صارخة معذبة تقحتم ذلك الصراع الجحيمي، فعرفت أن أعداءنا قد بدأوا يتلقون نيراننا، وأن الطاولة قد انقلبت على رؤوسهم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد فترة ليست بالقصيرة بدأت حدة المعركة تخف، فأخذت الخطوات تتراقص من حول مخبئي من جديد، وبينما كنت أهم بالتحرك من مكاني، إذ فجأة سقط جسمٌ ثقيلٌ فوقي فتمدد أمامي!

لم أفكر للحظة، وسرعان ما كنت أقحمت خنجري في حلقه، فشعرت بجسده ينتفض في قوة، قبل أن ينكمش على نفسه ويسقط أرضًا، وعنما أخرجت يدي وجدتها لزجة.. ارتفعت حشرجات الرجل فخيل إلى أن أنينه وشهيقه أصوات صارخة سترشد الأعداء لمكاني، وشعرت برغبة عارمة في سد فمه هذا لأحشوه بالتراب، وطعنه ثانية وثالثًا حتى يهمد إلى الأبد فلا يفضح وجودي.. لكنني تمكنت من التغلب على شيطاني بالنهاية، لكن كل هذا الاجهاد النفسي جعلني أشعر أني فارغ من كل قوة كانت بداخلي، فلم أعد أجد بنفسي القوة لرفع يدي وطعنه من جديد!

زحفت نحو الجانب الآخر من الحفرة، فوقفت هناك أحدق فيه وقد ركزت عيناي عليه، وبقيت يدي قابضة على الخنجر في أتم استعداد للقفز نحوه لو صدرت منه أقل حركة، لكنني وجدته ساكنًا ثابتًا في مكانه لا يصدر منه إلا صوت حشرجة خافت..

رأيت ملامحه المحتقنة بوضوح، وشعرت برغبة واحدة تتملكني في تلك اللحظة، وهي أن أرحل عن تلك الحفرة للأبد! لكنني بمجرد أن رفعت رأسي فوق الحفرة حتى تأكدت من إستحالة خروجي، فنيران المدافع ألهبت سطح الأرض، فغطتها بقذائفها المهلكة.. ولو خرجت الآن لكان في هذا هلاكي الفوري.. رفعت خوذتي فوق سطح الحفرة لاختبار مسقط المقذوفات، وسرعان ما جاءت قذيفة ساخنة فأطاحت بها من يدي، ورأيت النيران تكتسح سطح الأرض من حولنا برمتها!

انتظرت على أحر من الجمر وأنا أتوقع هجوم رجال الأعداء على مكاني بين لحظة وأخرى، ومرت الدقائق بطيئة كأنها شهورٌ وأعوامٌ..

لم أجرؤ على إخراج رأسي ثانية، ولا جرؤت على النظر مرة أخرى نحو الجسد المتكوم في الجانب الآخر من الحفرة.. ولم ينقطع صفير الرصاص ولو للحظة واحدة.. انتبهت لمنظر يدي الملطخة بالدم، وشعرت فجأة بمعدتي تتقلص، فالتقطت بعض التراب من حولي لأجفف به يدي، فكستها طبقة من الطين أخفت الدماء تحتها.. طيلة ذلك الوقت لم تنقطع طلقات النيران، التي انصبت حامية من الجانبين وعلي الجانبين.. ولا أستبعد أن رفاقي قد يئسوا من وجودي على قيد الحياة، هذا لو كانوا هم على قيد الحياة من الأصل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أتى الفجر، ولا زال رفيقي بمحبسي يتحشرج، فوضعت أصابعي على أذني لأسدهما، لكنني سرعان ما رفعتهما ثانية لكيلا تخفي عني أصوات الجبهة..! تحرك الجسد الساكن فجأة، فانكمشت على نفسي ونظرت له مجبرًا، وأبقيت عيناي ملتصقتان به.. كان رجلاً بلحية مدببة، وقد تقوس

ساعديه فمالت رأسه لتستقر فوقه، بيمنا يده الأخرى ملتصقة بصدره المغطي بالدم.. أخبرت نفسي أنه ولا بد قد مات، وفقد كل شعور بداخله، ولابد أن هذه الحشرجة تصدر عن جثته الفارغة من الحياة.. ارتفع الرأس فجأة وقد بدا كم المجهود الذي يبذله لفعل هذا، وتزايدت حشرجته ارتفاعًا، قبل أن يسقط رأسه ثانية فوق ذراعه.

كان الرجل يكابد النزع الأخير، فجرجرت نفسي تجاهه في تردد، قبل أن أحسم ترددي وأستند على يدي لأزحف قليلًا.. ثم انتظرت مكاني لثواني، ومع أن المسافة التي تفصلنا لم تكن لتزيد عن ثلاث ياردات، إلا أنها بدت لي وقتها رحلة طويلة مرعبة. وصلت أخيرًا بالقرب منه.. فتح عينيه وقد شعر بي، فأخذ يحدق في بعينين تمتلئان بأشد معالم الخوف والرعب..

كان جسده ساكنًا، لا تتحرك فيه إلا عيناه اللتان ارتسمت فيهما أعتي معالم الرغبة في الفرار والتي جعلتني أشعر أن عيناه هاتان سرعان ما ستحملان الجثة فتفران بها.. صحيح أن جسده كان ساكنًا، لكن ما ظهر في عيناه من مجهود هائل راغب في الفرار كان مرعبًا..بدا مذعورًا من الموت، ومذعورًا مني.. تخاذلت ساقاي أمام هذا المشهد، فسقطت فوق ذراعي هامسًا:

-لا! لا!

تبعتني عينا الرجل، فشرعت بنفسي عاجزًا عن التحرك وهو يتطلع نحوي!

تحركت يده مبتعدة عن صدره قليلًا،وسقطت، فخلصني من تأثير عينيه الكاسح. انحنيت فوقه وأنا أهز رأسي هامسًا:

- لا.. لا!

رفعت يدي أمامه ليفهم رغبتي في مساعدته وإسعافه، ووضعتها على جبينه، فأغمض عينيه، وقد ذهبت نوبة الهلع التي كانت تنهشه، وفتحت ياقة زيه العسكري ووضعت رأسه في وضع مريح.. حاول أن يتفوه ببضع كلمات من فمه المفتوح، لكن حالت شفتاه الجافتان دون هذا.. لم تكن زجاجتي بحوزتي وقتها لأسقيه منها، لكن كان يوجد الماء الموحل في الجانب الآخر من الحفرة..

اتجهت نحو المياه، فأخرجت منديلي وغمزته في بركة المياه الموحلة، ثم عصرت منديلي لأتلقي قطرات المياه التي تسربت من أمام المنديل في راحتي..

تجرع قطرات المياه القليلة، فأتيت له بالمزيد.. ثم قمت بفك أزرار سترته لأضمد جراحه لو كان هذا بوسعي.. وعلي أية حال كان لا بد من أدائي لتلك المهمة الازمة، فلو حدث وعثر الأعداء علي، سيجدون أنني حاولت مساعدة زميلهم واعتنيت به، فلا يفكروا في قتلي!

حاول المقاومة، لكنه كان خائر القوى، ووجدت القميص قد التصق بجسده، كما أنه كان مقفلًا من الوراء، فلم يكن أمامي حل إلا تمزيقه.

درت بعيناي باحثًا عن الخنجر حتى وجدته، وبينما كنت أهم بتمزيق قميصه، انفتحت العينان، وسرعان ما عادت لهما نظرة الرعب المفعمة بالفزع والاستعطاف، فاضطررت لاغماضهما فقد شعرت بنظراتهما تحرقاني، فرحت أهمس في أذنيه بصوت خافت حاني:

- أريد مساعدتك أيها الزميل..

كررت كلماتي باللغة الفرنسية أكثر من مرة، عله يفهم غرضي فيطمأن بالًا.. وجدته مصابًا بثلاث طعنات، فضمدتهم بالضمادات التي نحملها معنا في الجبهة، وعندما بدأ الدم ينزف من تحتهم، بدأت أضغط على الأربطة لايقافه، فأخذ يتوجع مع ضغطاتي، للأسف لم يكن بوسعي فعل ما هو أكثر، وطفقت أنتظر.....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يالها من ساعات بطيئة رهيبة لا تكد تمر.. عادت حشرجته تتردد من جديد، فشعرت بمدى معاناة ذلك البائس، كأنني أنا من يموت ببطء وليس هو.. كنت متاكدًا من أنه مستحيل الإنقاذ، وكان قد خيل لي سابقًا بامكانية انتزاعه من بين براثن الموت، لكن الآن تأكد لي استحالة هذا، وعندما حل الظهر تجددت حشرجته مروعة مؤلمة، ولكم تمنيت لو أن مسدسي معي في تلك اللحظة، فلو كان معي لما ترددت في الإجهاز عليه لأريحه من هذا العذاب، أما أن أنهي حياته بطعنة أخرى من الخنجر، فهذا ما لم أقو عليه.. شعرت بوحش الجوع ينهش أحشائي، حتى لم أعد أقو على تحمل ألم تأثيره المهلك.. كنت أحمل بعض الماء لذلك المحتضر من وقت لآخر، وكنت أظفر بنصيبي كذلك. كان هو أول رجل أتيحت لي الفرصة لرؤيته عن قرب وهو يختبر سكرات الموت، بالرغم من كونه أمر شائع الحدوث، خصوصًا في القتال اليدوي.. كل شهقة كانت تخرج من فمه المتشقق كانت تمزق قلبي، وشعرت باحتضاره الطويل هذا كأنه خنجر يغمده في صدري! مرت الساعات طويلة مرهقة للأعصاب، ووصلت عند نقطة معينة أني صرت مستعدًا أن أهبه حياتي عن طيب خاطر لو كان في هذا حياته، فالبقاء بجواره ومشاهدة احتضاره والاستماع لصوت حشرجته هذه دمر أعصابي بالكامل..

وقرب الساعة الثالثة مساء، لفظ آخر أنفاسه على سطح هذه الأرض!

صحيح أن هذا أراحني قليلًا من الحشرجة وعذابها، لكن كان الصمت والسكون الذين خيما على المكان أشد وطئا من توجعه وشهيقه.. تمنيت لحظتها لو عاد للحياة من جديد حتى ولو ملأ فضاء الحفرة كلها أنينًا وحشرجة ملأ الأرض والسماء..

لم تكن هناك فائدة مما سأفعله وكنت أعرف هذا، وربما كان من قبيل الجنون، لكنني قمت من مكاني على أية حال، فقمت بإجلاس الميت، بحيث أسندت ظهره لجدار الحفرة في وضع مريح، حتى وانا أعرف أن جسده الخالي من الحياة لا يشعر ولا يحس، ثم قمت باغماض عينيه العسليتين الداكنتين.. لم أعرف لمَا فعلت أيا من هذا.. ربما رغبة خفية مني في أن تقابل جثتي نفس الاحترام ممن سيكون موجودًا بجواري لحظتها..

حانت مني نظرة نحو وجهه، فخيل لي أن علامات الحياة لا تزال ظاهرة عليه.. لكن فجأة بدأت ملامح وجه رفيقي تتغضن فيكسبه الموت سحنته المخيفة!

هل لديه زوجة تفكر فيه الآن؟ هل تنتظر من أنامله أن تخط لها رسالة تطمئنها عليه؟ أن تستقبل رسالته متشوقة فيمتلئ قلبها صبراً وسكينة؟ شعرت بالكثير من الأفكار تنهش عقلي، والعديد من الهواجس تصول وتجول بداخله..

كيف تبدو زوجته يا تري؟ هل تشبه تلك النحيلة السمراء البشرة التي رأيتها عند ضفة القناة؟ وهل صارت الآن ملكاً لي بعدما أزلت زوجها من الوجود؟ ياليت رفيقي «كانتوريك» بجانبي الآن.. ليت أمي تري أي حال وصلت إليه!

لو أنني كنت بالذكاء الكافي لحفظت معالم الطريق داخل ذاكرتي ولم أضل طريقي لخنادقنا، ولما لقي ذلك البائس حتفه، ولظفر بثلاثين عاما أخرى على تلك الأرض.. لو كان قد حاد مترين لليسار لكان يجلس الآن داخل خندقه يخط رسالة جديدة لزوجته.. لكن ما فائدة كل تلك الأسئلة والأحلام؟ الموت مصيرنا جميعًا، وقد حدث ما حدث بالفعل، ولا سبيل لتغيير مجري الأحداث..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم أجد مفرًا من الحديث حتى لا أفقد عقلي، فقد تزايد ثقل الصمت من حولي على سلامتي العقلية.. بدأت أتحدث مع رفيقي الميت كأنه سيسمع ما أقول:

- لم أكن أنوي قتلك يارفيق.. ولو أنك وثبت ثانية هنا فلم أكن لأفعل شيئاً يضرك.. المشكلة أنك كنت فكرة تمثلت في خيالي قبل أن تظهر، فملئت فراغ ذهني، وتوجب أن تلقي نهايتها المحتمة.. لم أطعنك، وانما طعنت تلك الفكرة المريعة التي تسلطت علي.. فكرة المفاجآة والمباغتة!

لكن للمرة الأولى صرت أراك كإنسان مثلي.. فكرت من قبل في قنبلتك التي ستقذفها نحوي، وفي حربتك، وفي بندقيتك.. أما الآن فلم اعد أرى أمامي إلا زوجتك الباكية، ووجهك الساكن، وزمالتك.. اغفر لي أيها الرفيق ما فعلته، فالمرء منا لا يفتح عينيه إلا بعد فوات الأوان.. لم لا يتم إخبارنا أنكم لا تقلون بؤسًا عنا؟ أن لديكم أمهات تتلهفن جوعًا وخوفًا كأمهاتنا، وأننا جميعًا نشترك في نفس الخوف من الموت، وأننا كلنا سواء في الموت ونزاعه..اصفح عني أيها الرفيق.. كيف يمكن أن تكون عدوًا لي! لو أننا أزحنا تلك الأزياء العسكرية والأسلحة جانبًا، لما كنت إلا أخا لي، لا تختلف في شيء عن «كات» و»ألبرت».. خذ ولو عشرين عاما من عمري يارفيق وقم من مرقدك هذا.. بل خذ أكثر من هذه المدة لو أردت، فلم أعد أعرف كيف أستفيد من تلك الحياة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غمر السكون والهدوء الجبهة بأكمله، باستثناء طلقات الرصاص التي أخذت تنهال بإحكام ودقة من كل جهة، فاستحال على أن أمر من بينها.. همست للميت سريعاً:

- سأخط رسالة لزوجتك، فيجب أن تسمع القصة مني.. سأخبرها بكل ما قلته لك، ولن تقاسي من بعدك فلا تقلق.. كما أني سأساعد والديك وأطفالك لو كان لك أطفالاً..

كانت سترته مفتوحة الأزرار، وتمكنت من إخراج نوتة صغيرة كانت بداخل جيبه، لكني تسمرت للحظات مترددًا في فتحها، صحيح أنه يوجد بداخلها البطاقة التي تحمل اسمه، لكن مادمت أجهل اسمه سيسهل على نسيانه، وسرعان ما سيطمس الوقت صورته بداخلي فيتكفل بمحوها من ذاكرتي، أما إذا عرفت اسمه سيكون هذا بمثابة كمسمار يقتحم رأسي، فيستحيل إخراجه منها.. وكلما تذكرته سيعود لذهني تفاصيل تلك المأساة وترتسم صفحاتها المؤلمة أمام عيني.. وقعت النوتة من يدي أرضاً وانفتحت، فتساقطت منها بعض الرسائل والصور، فجمعتها في حرص وهممت بإعادتها لمكانها بداخل النوتة، لكن توتري بسبب الموقف العصيب الذي أمر به زاد من تخبطي واضطرابي..

أردت أن أعجل بنهاية كل شيء، وأن أضاعف عذابي فأضع حد لكل هذا، كما يفعل من يشعر

بالألم في يده فيقوم بضربها بالحائط ليتخلص من وجعها.. لمحت صورة أنثى شابة، وصورة طفلة صغيرة، كما رأيت العديد من الصور الأخرى التي بدت كأنها التقطت في مناسبات متفرقة.. كانت هناك كذلك بعض الرسائل، فتناولتها وشرعت في تصفحها، لكنني وجدتها مكتوبة باللغة الفرنسية، التي لم أكن افهم منها الشئ الكثير..لكن كل كلمة فهمتها كانت بمثابة طعنة نجلاء تتفذ عبر صدري وجوارحي..

عجزت عن تحمل كل هذا العذاب، لكن ما صرت متأكدًا منه هو أني لن أجرؤ على الكتابة لأهل هذا القتيل كما انتويت سلفًا، وظهر لي مدى استحالة هذا الخاطر.. رمقت الصور من جديد واستوعبت أن أصحابها من طبقة متوسطة مثلنا، ففكرت أنني ربما يمكن أن ارسل لهم فيما بعد ما يعينهم من مال على مواجهة الحياة، لو حدث ونجحت في حياتي بعدما أخرج من هنا وربحت ما يكفي من مال..

عزيت نفسي بتلك الفكرة ووجدت فيها أملا خفف عني بعض أنياب العذاب التي أنشبت نفسها في قلبي.. شعرت أن حياتي السابقة قد انتهت فصرت مرتبطا للأبد بهذا القتيل! شعرت أنه قد صار من واجبي ان أقوم تجاهه بكل شيء ممكن، وأعاهده على كل شيء.. عسى أن يكفر هذا عن خطيئتي يوم الدينونة!

أقسمت بتكريس كل ما تبقى من حياتي لذكرى هذا القتيل وعائلته، لعل الله يغفر لي بسبب فعلي هذا ما ارتكبته، فيرحم روحي في الآخرة، وربما يهيئ لي مهربًا من تلك الحفرة التي احتوتني فأشعر بها تكاد تكون قبري..

فتحت النوتة بأنامل مرتعشة وقرأت اسمه فيها، لأجده يدعي «جيرارديفال»، ويعمل كطابع..

كتبت اسمه في ورقة معي مستخدما قلم القتيل، قبل أعيد كل شيء لجيبه كما كان قبلا..

أنا قتلت «جيراردیفال. « والذي كان يعمل طابعًا.. لهذا يجب أن يكون مصيري أن أصبح طابعًا مثله.. طابعًا.. طابعًا!

وبدأت أفقد إدراكي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أتى الأصيل، ومعه بدأت أفكاري في الهدوء، ومخاوفي بدأت في الزوال.. لم يعد اسم القتيل يرعبني، وزال عني ما شعرت به من جنون وقتي.. قلت له بهدوء:

- صحيح أن موعدك اليوم يارفيق، لكنني لن ألبث أن ألحق بك غدًا.. لكنني أعدك يا «جیراردیفال. « أنني لو خرجت سالمًا من هذا الجحيم أن أكافح هذا الذي أصابنا نحن الإثنان، فنزع منك حياتك، ونزع مني حياتي كذلك.. أعدك أيها الرفيق ألا يتكرر هذا حتى أموت..

أوشكت الشمس على الغروب..

وكان التعب والجوع قد نالا منالهما مني..

تمكنت من النوم بالنهاية لبعض الوقت، لكنني لم البث أن فتحت عيناي مرتعدًا، فقد خشيت أن يصيبني شيء أثناء النوم!

لم أعد أفكر برفيقي القتيل، بل استولى على جوارحي فجأة تشبث بالحياة فملأ شعاب نفسي،

ونزع عنها كل ما جال بها من أفكار وخواطر.. ولكي أبعد عن نفسي كل سوء، أخذت أردد في آلية:

- سأنفذ كل وعد قطعته!

لكن جزء بداخلي كان يعرف أن هذا لن يحدث، وأنني لن أفعل..

خطر لي فجأة أن زملائي قد يقوموا بإطلاق النار عليّ لو رأوني أزحف نحوهم، فهم لا يعلمون بعودتي.. فقررت أن أناديهم عندما أقترب منهم حتى يعرفوني، وأظل متمددًا أمام الخندق حتى يستجيبوا لندائي..

لكن الليل لم يلبث أن نزل بستاره الداكن، ومعه خفت حدة انفعالي..

انتظرت حتى تم اشعال الصواريخ الأولى، وسرعان ما زحفت خارجا من الحفرة وقد نسيت القتيل، وركزت نظري على حفرة قريبة.. لم تكد الصواريخ تنطفئ حتى هبطت داخل الحفرة، ثم تسللت منها إلى الحفرة المجاورة، وهكذا....

شاهدت في ضوء الصواريخ كتلا مبهمة تتحك هنا وهناك حين اقتربت من مواقعنا، فتمددت مكاني في صمت.. رأيت تلك الظلال تتحرك ثانية، وهنا لمحت خوذاتهم فتأكدت من أنهم رجالنا، وسرعان ما ناديت عليهم، وعلى الفور جاءني رد يردد اسمي:

- « بول. «؟ أهذا انت؟

أجبت الصوت إنه أنا فعلًا، فرأيت ظلين يحملان نقالة يقتربان، وعندما صارا أمامي تعرفت فيهما على «كات» و «ألبرت» اللذان غادرا الخندق حاملين تلك النقالة بحثا عني.. سألاني:

- هل جرحت؟

- لا.. لا تقلقا علي..

سرعان ما كنا داخل الخنادق، فطلبت منهم أن أصيب شيئاً من الطعام.. وبمجرد أن أحضروا لي طبقا ازدرت ما بداخله دون أن أفقه ما هو.. بعد أن انتهيت قدّم لي «موللر» سيجارة..

حكيت لهم في كلمات قليلة ما مررت به، فلم يجدوا فيه ما يثير النفس أو يلفت النظر، فمثل هذه الأشياء كثيرة الحدوث في الجبهة، ولم تكن تختلف عن ما ألفوه سوى موضوع الهجوم الذي حدث بالمساء.. قال «كات» انه ظل لفترة مختبئا وراء خطوط العدو عندما كان في «روسيا «، وظل على وضعه هذا ليومين كاملين بلياليهم قبل أن تتسني له الفرصة للرجوع..

لكنني أبقيت لنفسي جزءا من القصة لم أقصه على اخد، وهو الجزء الخاص بحديثي مع القتيل!

لكن بمجرد أن أتى الصباح حتى ألفيت نفسي عاجزًا عن كتمان تلك القصة أكثر من هذا.. فحكيتها لكل من «كات» و»ألبرت»، فامتننت لكونهما لم يسخرا مني وإنما أخذ كل منهما يطيب خاطري بكلمات من قبيل:

- وهل كان يمكنك التصرف بشكل مختلف؟ لا حيلة لك يا بني فيما حدث.. فأنت لم تأت هنا إلا لمثل هذا الغرض..

استمعت لكلماتهما، وشعرت ببعض السكينة والسلام لوجودي معهما، واستوعبت أنني كنت أهذي طيلة وجودي بالحفرة.. قال «كات»:

- انظر مثلا إلى هناك..

نظرت إلى حيث أشار، فوجدت بعضا من جنودنا وهم ينصبون بنادقهم عند مدخل الخندق فوق حافة الجدار.. وبالاستعانة ببعض النظارات المعظمة تمكنوا من مراقبة خطوط الاعداء.. وكنا نسمع صوت بنادقهم تطلق رصاصها من وقت لآخر.. بعد هذا ارتفعت صرخة فجأة، وسمعنا صوتاً يتساءل:

- انظر! هل رأيت كيف وثب في الهواء؟

بدا الجاويش «أولريخ» صاحب تلك الرصاصة القاتلة مزهوا بنفسه، فقد كانت رصاصته هذه هي رصاصته الثالثة التي تصيب هدفها اليوم.. سمعت «كات» يقول لي:

- ماذا تظن فيما رأيت؟

أومات برأسي صامتا، بينما غمغم «ألبرت»:

- لا حاجة بك لتعذيب نفسك جراء مغامرتك..

الحقيقة أنني صرت لا أكاد أفهمها، فقلت:

- صحيح أن الحرب هي الحرب، لكن أعتقد أن بقائي مع القتيل لفترة طويلة هو السبب في اتخاذ تلك المغامرة ذلك الاتجاه الغريب..

وظلت بندقية «أولريخ» تنطلق من وقت لآخر، فتصيب عاثري الحظ من جنود العدو.

الفصل العاشر

حظينا بغنيمة كبيرة..

فبالإضافة لكونهم عهدوا إلى ثمانية أفراد منا بحراسة قرية هجرها سكانها جراء قصف القنابل، فقد عهدوا إلينا كذلك بحراسة خزين المؤونة الذي لم يفرغ بعد.. المفترض طبعًا أن يتم تموينينا منه، ولم يكن هناك من هو أنسب لتلك المهمة أكثر من عصابتنا التي تتكون من «موللر»، «كات»، «ألبرت»، «تيرنج»،» جادن»، وأنا معهم..

قمنا بإختيار قبو من الأسمنت المسلح، ذو مدخل يحميه مصنوع من الأسمنت كذلك، وقررنا أن نتخذ هذا المكان كقاعدة لنا..

أول شيء قمنا به هو فرش أرضية القبو بمراتب جئنا بها خصيصًا من بيوت القرية المهجورة، ثم أحضرنا الكثير من الأغطية الوثيرة، وعثرنا كذلك على فراش من الخشب اللامع أخذته مع ألبرت بعد قيامنا بفك أجزائه ثم أعدنا بناءه في مقرنا..

اتفقنا أنا و»كات» على القيام بعملية غزو لمنازل القرية، خرجنا منها باثنتي عشرة بيضة، ونحو رطلين من الزبد، وبينما نحن نتجول سمعنا صوتاً أثار دهشتنا، وبعده لمحنا خنزيرين رضيعين داخل حظيرة صغيرة.. أخذنا نفرك عيوننا غير مصدقين، وعندما تأكدنا أننا لا نحلم حملناهما معنا ونجن نكاد نطير طيرا بما معنا من كنوز..

ولحسن الحظ أنه كان لدينا مطبخ كامل التجهيزات في بيت صغير للضباط بجانب الخندق الذي اتخذناه قاعدة لنا، فأخذنا نعد العدة للوليمة الشهية التي سنقوم بطهوها..

خرج رفيقان لجمع بعض الخضار من الحقول المجاورة، فقد عقدنا اتفاقا على ألا نمس الأطعمة المحفوظة التي معنا حتى تبقى معنا لأطول فترة ممكنة، بما أننا لا نعلم إلام ستتطور الأمور فيما بعد..

قام «كات» بذبح الخنزيرين وشواهما، بينما توليت أنا صنع بعض الفطائر، وعندما نضج لحم الخنزيرين اصطففنا حوله كأننا حول مذبح مقدس.. أثناء هذا زارنا رجلين من فريق اللاسلكي، فقمنا بدعوتهما لمشاطرتنا تلك الوليمة.. جلسنا بغرفة الاستقبال حيث انتصب بيانو عتيق في أحد أركانها، فشرع أحدنا يعزف عليه، بينما انطلق ثاني يشاركه بالغناء.. كان صوتهما يتسلل إلينا بينما نحن نعد وليمتنا المنتظرة، فيمس شغاف قلوبنا.. لكن حدث ما كاد يفسد وليمتنا، فالدخان المتصاعد من مدخنة المطبخ تسبب في تنبيه طيارات العدو لنا، وسرعان ما بدأت قنابلهم تنهمر علينا!

من حسن طالعنا أنها كانت قنابل خفيفة لا تقدر على فعل الكثير، وإنما مجرد فتحات يسيرة، قبل أن تتناثر أرضًا..لكن هذا لم يمنع تطاير الشظايا في كل مكان، وسرعان ما نفذ بعضها عبر نافذة المطبخ..

كنا وقتها قد انتهينا من الطهو تقريبًا، فلم تطاوعنا قلوبنا على ترك تلك الوليمة خلفنا.. لم يكن باقيًا إلا نضج الفطائر التي كنت قد وضعتها على النيران..

حمل الرجلان صحون الخضروات، ثم انتظرا انقطاع القذف، قبل أن يندفعا نحو الخندق القريب من بيت الضباط بأكثر من خمسين ياردة، ثم اختفيا بالداخل!

بعد هذا لحق بهما رجلين آخرين منا، فركضا نحو الخندق وسط الفترة التي تخللت قذف القنابل، وقد حمل كل منهما إناء امتلأ بالقهوة الفاخرة..

بعد هذا حان دور «كات» و»كروب»»، وقد حملا أهم أطباق الوليمة، وهما الخنزيرين المشويين، ولم يصبهما إلا خدوشا طفيفة.. وعندما جاء دوري، حملت صحن الفطائر في حرص، وتسللت محتميا بالظل الذي رماه الجدار، وأخذت أركض بأقصى سرعة لدي.. قبل أن أصل للخندق وجدت قنبلة تنفجر لتتطاير شظاياها نحوي، فجاهدت لأزيد من سرعتي، وسرعان ما كنت أهبط درجات السلم لأصل في سلام وقد تقطعت أنفاسي..

بدأنا الوليمة في الساعة الثانية، فاستمرت حتى السادسة.. بعدها قمنا بصب القهوة، فأخذنا نحتسيها حتى الساعة السابعة والنصف.. بعدها جاء دور تدخين السجائر الفاخرة التي حصلنا عليها من مخزن المؤونة..

تناولنا العشاء في السابعة والنصف، وعندما حلت العاشرة كنا قد انتهينا منه، فأخذنا عظام الخنزيرين الصغيرين فألقيناها بالخارج، قبل أن يحين دور السجائر من جديد، والتي كانت أطيب وألذ نكهة من سابقتها..

قرب الثانية صباحًا سمعنا صوت مواء قادمًا من الخارج، ففتحنا الباب لنجد صاحبته واقفة أمام الباب تتطلع إلينا في فضول.. دعوناها للداخل فقدمنا لها بعض الطعام المتبقي، وبينما نحن نراقبها وهي تأكل وجدنا شهيتنا تشتعل من جديدة، فعدنا لالتهام ما تبقى من الوليمة.. وعندما تمددنا للنوم قرب الثالثة صباحا كان كل منا لا يزال يلوك شيئًا بفمه..

لكن هذا الاستمتاع لم يمنع كونها واحدة من أسوأ الليالي التي مرت بنا، فلأننا أفرطنا في تناول اللحم الدسم، خصوصا لحم الخنازير الصغيرة، فقد أصابنا مغصا وإسهالا، مما زاد من خروجنا من الخندق..

ولو أن أحدهم أتى في تلك الفترة لوجد اثنين أو ثلاثة منا جالسين دومًا بالخارج، وقد أنزلوا بناطيلهم، وقد ارتفعت لعناتهم وسبابهم..

أنا نفسي خرجت تسع مرات على الأقل من مخبئنا في تلك الليلة المقرفة!

وعندما دقت الرابعة فجرًا، حققنا رقمًا قياسيًا، فاصطففنا جميعًا جالسين القرفصاء بجوار بعضنا أمام الخندق.. بدت المنازل المشتعلة وسط ظلام الليل كالمشاعل، وقد انفجرت فيها القنابل وتناثرت شظاياها في كل صوب، بينما راحت سيارات التموين تقطع الشوارع الخالية بأقصى سرعة لديها..

تهدم جزء من جدران مستودع المؤونة، فانقض سائقوا سيارات التموين كالذئاب الضارية على قطع الخبز بالرغم من كل القنابل وشظاياها المتطايرة!

فضلنا ألا نتدخل حتى لا يفعلوا حماقة ما معنا بحالتهم هذه، والأهم أننا لم نكن نأبه لما يحدث، لأننا توقعنا أنهم حتى لو تركوا كل ما بالمستودع كما هو، فسرعان ما سيصبح مصيره أن

يكون طعما للنيران خلال لحظات.. اتجهنا صوب المستودع، وانقضضنا على قطع الشيكولاتة الموجودة هناك نلتهمها، فقد أخبرنا «كات» أنها توقف الإسهال..

مر بنا أسبوعين لا يعكرهما شيء، لا نفعل فيهما إلا الأكل والشرب والتجوال.. بدأت معالم القرية تختفي بمرور الوقت تحت وابل القنابل المتساقطة، فلم نهتم.. المهم لدينا هو كون مخزن المؤونة في أمان.. لم نكن نرغب في شيء غير البقاء في هذه الجنة الأرضية حتى نهاية الحرب..

لكن تأثير النعمة كان مفسدًا لبعضنا، مثل «جادن»، الذي بدأ بتدخين السجائر حتى منتصفها، وأقر لنا في خيلاء أنه قد تعود على هذا منذ طفولته..

بينما كان «كات» أكثر واحد ناله نصيب من الفرح والسعادة فصار يستيقظ من النوم قائلاً:

- أحضر لي القهوة والكافيار يا «إميل. «!

صار كل واحد منا يتحدث مع الآخرين من طرف أنفه، كما كنا نرى الأثرياء يحادثون خدمهم، فيلقي الأوامر والنواهي..

رفع «لير» قدمه ذات يوم نحو «كروب» قائلاً:

- أشعر ببعض الألم في بطن قدمي أيها الوصيف «كروب».. فلتقبض على القملة المتسببة في هذا فورًا..

استغربت «كروب» بالبداية عندما وجدته ينحني ليمد يده فعلًا نحو قدم «لير»، ثم لم ألبث أن انفجرت ضحكًا عندما وجدته يسحبه من قدمه فيجره على درجات السلم..

مرت ثمانية أيام بلياليهم علينا في هذا الحال، ثم، كما تنتهي كل الأشياء الممتعة، صدرت لنا الأوامر بالعودة، وجاءت سيارتا لوري ضخمتين لحملنا..

نقلت أنا و»كروب» الفراش لإحدى السيارتين، ووضعنا فوقه ما كان معه من مراتب وأغطية وثيرة، وأخذ كل واحد منا حقيبة امتلأت بالكثير من الطعام والسجائر.. كما توليت مع «كروب» إحضار مقعدين وثيرين، إذا جلسنا فوقهما شعرنا كأننا نجلس بمقصورة داخل المسرح.. التقم كل واحد منا واحدة من السجائر الفاخرة التي معنا فوضعها في فمه، فننظر من أعلى لما يقع أسفلنا.. كما أحضرنا معنا قفصا وضعنا داخله القطة التي جاءتنا ذات يوم، فأخذت تلتهم ما نقدمه لها من لحم وهي تموء في سعادة طاغية.. أخيرًا انطلقت بنا السيارتين، بينما انطلقنا نحن بالغناء.. تركنا القرية من خلفنا، وقد دمرتها القنابل بالكامل فلم يعد شيء من معالمها واضحًا، ولم يعد ظاهرًا أي من بين أطلالها الكئيبة كان منزلا وأيها كان مكتبًا..

بعد هذا بحوالي أسبوع عهدوا إلينا أن نقوم بإخلاء إحدى القرى مما فيها من سكان.. عندما وصلنا إلى هناك وجدناهم قد بدأوا يخلونها بالفعل، فرأيناهم يبتعدون حاملين معهم ما استطاعوا حمله من مؤن ومتاع..

سارت قافلة طويلة منهم مطرقي الرؤوس، وقد ارتسمت في عيونهم أقصى معاني الخيبة والانكسار حتى شعرت بالشفقة نحوهم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سرنا صفا واحداً، وقد فكرنا أن جيش الفرنسيين لن يقوم بإهدار نيرانه على قرية لم تخل من قاطنيها بالكامل بعد، لكن سرعان ما ثبت خطأ تلك النظرية، فقد بدأوا في قذف القرية خلال بضع دقائق، فارتجت الأرض من تحتنا، وماجت السماء من فوقنا.. تعالت الصرخات من كل مكان، ورأينا قنبلة تهوي على الصف الخلفي!

ارتمينا أرضًا على الفور محاولين تفادي القذائف وشظاياها، لكني شعرت في تلك اللحظة بحاستي السادسة التي طالما اعتنت بي وتحذرني من اقتراب الخطر فتساعدني بأن أرهف باقي حواسي وانقاذي، شعرت بها هذه المرة تهمس داخل أعماقي:

- هذه المرة أنت هالك يا صبي!

وفي اللحظة التالية مباشرة شعرت بقرقعة سوط تلهب ساقي اليسري، وسمعت صرخات «كروب» آتية من مكان بجواري.. كنا متمددين في العراء، فأخذت أصرخ:

- سارع بالنهوض يا «ألبرت» !

نهض مترنحا، وهو يحاول استجماع شتات نفسه..

أخذ يجري بجواري، وأخيرًا وصلنا لجدار من الأشجار أطول منا، فتشبث «كروب» بأحد الأغصان، وحاولت من جانبي مساعدته بأن أمسكت ساقه ورفعتها، فتعالت صرخاته.. رأيته يقفز للجانب الآخر من جدار الأشجار هذا، وسرعان ما كنت قد قفزت خلفه لأسقط في حفرة كبيرة وراء الأشجار.. كانت حفرة مليئة بالوحل فلطختنا، لكنها كانت ملائمة للتخفي، فغطسنا بأجسادنا داخل المياه الموحلة حتى أعناقنا..

وكلما ارتفع صوت قنبلة غاص كلانا تحت سطح الماء.. توجع «كروب» فهمس بصوت خافت:

- فلنهرب من هذا المكان.. لا أستطيع التحمل لفترة طويلة، سرعان ما سأسقط وأغرق!

عقدت حاجباي، وأزلت بعض الوحل الذي علق بحاجباي وانا أسئله:

- أين أصبت؟

- غالباً ركبتي.. الالم لا يطاق!

- أبوسعك الركض لبعض الوقت؟

- أعتقد..

- هيا بنا إذن!

خرجنا من الماء، فبدأنا نركض بأقصى سرعة لدينا وقد حنينا ظهورنا، فشعرنا بالقذائف تتبعنا في سخاء.. لو واصلنا الركض في هذا الطريق سرعان ما سنصل لمستودع السلاح، لكن لو فعلنا هذا فعلا فلن يبقى فينا ولو كتلة متماسكة من اللحم!

قررنا تغيير هدفنا، واتجهنا صوب الريف..

كان «كروب» يجر نفسه في صعوبة، ثم هتف فجاة وهو يتهاوى على الأرض:

- استمر في طريقك وسأتبعك أنا..

لكنني لم أوافق.. أمسكته من ذراعه وجذبته هاتفا:

- لا يا «كروب».. انهض بالله عليك! لو رقدت ولو للحظة ستكون النهاية.. أسرع بالنهوض وأنا سأساعدك..

وصلنا بالنهاية لفندق صغير الحجم متواضع المنظر، وبمجرد أن دلفنا عبر بابه حتى تهاوي «كروب» أرضا.. مزقت بنطاله لأتمكن من تضميد جرحه، والذي وجدته فوق الركبة بقليل.. بعدما قمت بتضميد جرحه، ألقيت نظرة على نفسي فلم أجد نفسي أفضل حالًا منه، فقد تخضب كل من بنطالي وذراعي بالدماء، فتولى «كروب» تضميد ما بي من جراح..

وجد «كروب» نفسه غير قادر على تحريك ساقه ثانية، فعجبنا كيف تمكنا من عبور كل تلك المسافة، فأدركنا أن خوفنا كان هو المحرك الذي دفعنا للاستمرار في التقدم بالرغم من حالتنا المتردية.. وأظن أنه لو كانت سيقاننا قد بترت، لما توقفنا كذلك، ولتقدمنا زاحفين..

خيل لي أني سمعت أصواتًا آتية من الخارج، وعندما وجدت أن بوسعي الزحف ببطء، زحفت للخارج حيث وجدت إحدى عربات الإسعاف، فناديتها.. حملونا معهم، وكانت العربة ممتلئة عن آخرها بالجرحى بالفعل..

كان بداخلها جاويشٌ من القسم الطبي بالجيش، فتقدم نحونا وقام بحقننا بمصل ضد التيتانوس في صدورنا..

داخل المستشفى سعينا لينتهي بنا الأمر على فراشين متجاورين، وللأسف لم يكن الطعام جيدًا..كان كل ما قدموه لنا مجرد طبق من الحساء الخفيف.. ازدردناه بسرعة من شدة جوعنا.. قلت لرفيقي «كروب»:

- هل سنتجه لبلدتنا؟

- أتمنى هذا.. لكن قبل أي شيء أريد معرفة طبيعة إصابتي..

تعاظم الوجع، فكنت أشعر بالأربطة التي ضمدوا بها جراحي كأنها تكويني نارًا حامية، وكنا نشرب الماء طيلة الوقت..

ذات مرة سألني «كروب»:

- كم تبعد إصابتي عن الركبة نفسها؟

- حوالي أربع بوصات..

كنت أكذب عليه، فالحقيقة هي أنها كانت فوق الركبة نفسها!

قال بعد لحظة من الصمت:

- الواقع أنني فكرت بالأمر.. ولو بتروا ساقي فستنتهي حياتي بالكامل.. لن أقدر على استكمال حياتي وأنا مقعد..

تمددنا وقد سلم كل واحد منا عقله لهواجسه، وطفق كل واحد ينتظر مجريات الأمور..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تم نقلنا بنفس المساء لغرفة العمليات، فاستحوذ الرعب عليّ، وأخذت أفكر فيما يتوجب عليّ فعله لو حدث ما نخشاه، ففي هذه الأيام، صار الجراحين يبترون لمجرد الاشتباه..

طاف رفيقي» كمريخ» بخاطري، وقررت أنه مهما حدث فلن أدعهم يقومون بتخديري، حتى لو لم يكن أمامي حل غير مقاومتهم بالقوة!

ظهر الجراح وقد حمل صحنا معدنيًا تألقت من فوقه أدواته ومشارطه!

أمسك ممرضان بذراعاي، وفي نفس اللحظة شعرت بألم لا يحتمل يغزو جسدي، فتمكنت من تخليص يدي من قبضة أحدهما، وكنت على وشك تحطيم أنف الجراح بقبضتي، لولا أن ذلك اللعين فطن لما أفعله في آخر لحظة فانحني للوراء، قبل أن يهتف مغضبا:

- أبعدوا هذا الفتى من هنا!

تمالكت أعصابي، فقلت بهدوء:

- اعذرني ياسيدي الطبيب.. سأبقي هادئًا.. لكن أرجوك لا تخدرني..

وافق الطبيب على ذلك الاتفاق، وعندما تفرست في ملامحه وجدته لا يزال شابا في بداية الثلاثينات غالبًا، وقد بدت على ملامحه الطيبة.. أخذ يعبث بمشارطه قليلًا داخل جرحي، بينما الألم لا يطاق ويكاد يجعلني أجن.. بالنهاية تمكن من استخراج شظية من بين لحمي، لم يلبث أن ألقى بها لي لأراها.. يبدو أنه سر من هدوئي وما بذلته من مجهود كبير لتحمل ما كابدته من ألم، فأراد مكافئتي بتلك الطريقة.. ثم قام بتثبيت ساقي بحرص كبير فوق جبيرة، قبل ان يقول لي مبتسما:

- غدا سيتم نقلك لبلدتك..

عندما رأيت «كروب» ثانية أخبرته بموضوع القطار الذي سيأتي غدًا بالصباح.. قلت:

- يجب أن نقوم بمحاولة مع جاويش القسم الطبي لكي يبقى داخل القطار معنا لنلجأ إليه في حالة حدوث أي متاعب..

اتصلت بذلك الجاويش، فقدمت له سيجارتين من السجائر الفاخرة التي بقيت معنا،فتشممها قليلا قبل أن يقول مبتسما:

- هل هناك المزيد منها معك؟

- نعم، معي عدد لا بأس به، وكذلك مع زميلي هذا -وأشرت نحو «كروب» الذي ابتسم ببلاهة- وسوف يسعدنا أن نعطيك الكمية كلها في القطار صباح الغد..

ضاقت عيناه، وبدا عليه أنه استوعب مقصدي، فلم يلبث أن هز رأسه، قبل أن يتشمم السيجارة مرة ثانية مجيبًا:

- حسنا إذن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مات سبعة ممن كانو معنا في نفس القسم.. هكذا لم نذق للنوم طعما طيلة الليل..

أخذ أحدهم يغني بأنشودة بصوت ضعيف واهن كأنما يزجي الوقت، حتى حل الموت بمنجله الأسود فحصد روحه.. زحف آخر من فراشه للنافذة، فتمدد بجانبها رغبة منه في إلقاء نظرة أخيرة على العالم من خلالها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

علي رصيف المحطة انتصبت العديد من النقالات التي تم رصنا فوقها، فانتظرنا القطار لما يقارب الساعتين.. بدأ هطول المطر بعد ساعة، ولم يكن بالمحطة سقف، ولم تكن أغطيتنا ثقيلة، وسرعان ما كنا غارقين بالمياه..

اهتم الجاويش بنا أشد الاهتمام، وعندما قدمت له سيجارة جاء بغطاء من المشمع فوضعه فوقي أنا و»كروب».. تذكرنا نحن الاثنين فجاة الفراش الفاخر الذي استولينا عليه، والمقعدين الوثيرين اللذان كنا ننتصب عليهما بعظمة الأباطرة، واللذان كنا قد قررنا أن نقوم بتأجيرهما فيما بعد بالساعة لمن يشاء، على أن تكون تكلفة الساعة سيجارة واحدة..

كما تذكرنا أكياس المؤونة والقطة، فسرعان ما أصابنا الاكتئاب لكل ما افتقدناه..

ألا ليت ذلك القطار يتأخر يومًا فيعطي الفرصة لـ «كات» أن يحضر تلك التحف الثمينة ثم يلحق بنا؟

لكننا للأسف في حالة لا تسمح بالتعرض للانفعال، فاستسلمنا لمجريات الامور آملين أن يكون القادم أفضل.. أخيراً ظهر القطار بصافرته المزعجة ودخانه، لكنه في تلك اللحظة بدا كعربة تقودها الملائكة ستأخذنا للديار..

نفذ الجاويش وعده لنا، فقام بوضعنا فى عربة واحدة..

وعندما ركبنا لمحنا مجموعة من ممرضات الصليب الاحمر بزيهن المميز، وقد وقفن بانتظار الركاب.. تم وضع «كروب» في فراش سفلي، بينما طلبن مني أنا أن أركب في الفراش الذي يعلوه.. بمجرد أن رأيت الفراش هتفت:

- يا للهول!

كان فراشا نظيفا مغطي بكسوة ناصعة البياض..

استفسرت الممرضة:

- هل هناك خطب ما؟

نعم، أكيد هناك خطب ما.. لا يمكنني الرقاد على مثل هذا الفراش النظيف بمثل الحالة التي كنت عليها.. كان قميصي لم يتم غسله منذ ستة أسابيع، فاختلطت فيه القذارة بالوحل.. وجدت الممرضة تسألني برقة:

- ألا تستطيع أن تصعد للفراش بنفسك؟ هل تحب أن أحضر من يعاونك؟

سال العرق على جبهتي وانا أقول لها بخجل:

- لا.. يمكنني بمفردي.. لكن أيمكنك أن تزيحي الغطاء أولًا؟

سألتني مستغربة:

- لماذا؟

شعرت في تلك اللحظة أنني متسخ كالخنازير، فأجبتها مترددًا:

- ملابسي ليست نظيفة، ولسوف يتسخ الغطاء..

- لا يهم.. سوف نغسله فيما بعد..لا تلقي بالًا لهذا..

شعرت أنني لا استحق مثل تلك المعاملة الرقيقة، فاعترضت منفعلا:

- لا.. مستحيل!

- ليس كثيرًا علينا أن نغسل غطاء فراش لجندي باسل مثلك قضى فترة في الجبهة ليدافع عن البلاد..

أجابتني مبتسمة، فتطلعت لملامحها المليحة التي امتلأت بنضارة الشباب.. كانت نظيفة مهندمة مثل كل شيء بالعربة، حتى يكاد الشخص يظنها عربة مخصصة للضباط. لكن كل هذا البريق أشعرنا بالغربة وبأننا لا ننتمي لهذا المكان، فلم يلبث أن ساورنا مزيج من الخوف والقلق.. قلت مترددًا:

- هناك شيء آخر..

- وما هو؟

- القمل! هناك الكثير من القمل في ثيابنا..

ضحكت الممرضة وهي تجيبني:

- لا مشكلة.. فليتمتع قملك بيوم هانئ كذلك..

لم أهتم لشيء بعد هذا..

سرعان ما كنت أعتلي الفراش، فجذبت أغطيته فوقي.. شعرت بيد تمتد فوق الغطاء بخفة، فوجدتها يد الجاويش.. بعد لحظة كان يسير مبتعدًا وهو يحمل السجائر التي وعدناه بها..استلقيت في مكاني أرمق السقف صامتًا، ولم تكد تمر ساعة، حتى كان القطار قد بدأ يتحرك ببطء، وكان يقف كثيرا في الطريق، حتى يتم نقل من توفوا منه..

لم تكن حالتي سيئة، لكن «كروب» أصيب بالحمي.. كانت هناك بعض الآلام التي تنتابني من وقت لآخر، لكن أكثر ما أثار ضيقي هو القمل اللعين! تسرب ذلك القمل أسفل الأربطة، فاشتد وخزه.. لم أكن أستطيع أن أحك جلدي بسبب الجرح..

أخبرتني الممرضة أن رفيقي «كروب» سيتم نقله من القطار في المحطة التالية، بسبب الحمى التي أصابته، وكان قد مرعلينا ثلاث ليال بالفعل، وكنا قد وصلنا ل. «هيريستال. «..

سألت الممرضة:

- ما هي محطة القطار الأخيرة يا سيدتي؟

- « كولونيا «..

نظرت ل. «ألبرت» بعدما ذهبت وهمست له:

- يجب أن نظل سويًا يا فتى..

حينما كانت الممرضة تقوم بجولتها التالية حبست أنفاسي حتى احمر وجهي، ظهرت عروقي، وانتفخت أوداجي.. توقفت الممرضة بجواري تسألني:

- هل هناك وجع؟

- نعم..شديد..ظهر فجأة..

ألقمتني ترمومترًا بفمي وتركتني ريثما تعاود مريضاً اخر.. ولو لم أكن أعرف كيف أتصرف في مثل هذا الموقف لكان عار عليّ أن أكون تلميذ «كات».. لم تكن ترمومترات الجيش لتقف عقبة أمام الجنود القدماء المحنكين أمثالي.. كل ما عليّ فعله هو جعل خيط الزئبق الفضي يرتفع لأعلى ليتوقف عند حرارة عالية مقنعة، وألا يهبط ثانية عندما تراه الممرضة.. وضعته تحت ابطي وهو مائل، وأخذت بعد ذلك أدلكه بأصابعي، ثم قمت بهزه بقوة، فارتفع الخيط حتى وصل إلى درجة، لكن هذا لا يكفي.. أشعلت عود ثقاب ووضعته بالقرب من طرفه المعدني في حرص حتى لا ينفجر، فزاد علو الخيط حتى وصل إلى ١٠٢ وبضع شرطات، وهو ما كان يمثل نتيجة جيدة جدًا..

عندما عاودتني الممرضة ثانية، بدأت ألهث بشدة وأنظر لها بعينين خاليتين من الإدراك، وأخذت أتقلب في مرقدي كأنما أتوجع بشدة.. تمتمت:

- لا أقدر على تحمل كل هذا الألم..

التقطت الممرضة الترمومتر من فمي في اشفاق، قبل أن تدون اسمي في رقعة من الورق معها، وفي المحطة التالية تم نقلي من القطار مع «كروب»..

امتلأت المستشفى بمن كانوا معنا بنفس القطار، وكانت معظمهم حالات شديدة الخطورة، ولهذا تأخر فحص جروحنا يومها بسبب كثرة الحالات المتاخرة وقلة عدد الأطباء.. لكن المهم أن أمرنا انتهى بغرفة واحدة داخل المستشفى أنا و»كروب».. المشكلة أننا قضينا ليلة كلها أرق وقلق، فلم نذق للنوم طعمًا إلا قرب الفجر..

عندما أتى الصباح حملتنا نقالات مسطحة مرفوعة على عجل، واحدًا بعد الآخر، لغرف العمليات، حيث سيتم فحص الجروح وتغيير الأربطة، وهنا رأينا الاهوال!

كانت الغرفة التي أدخلونا فيها تضم ثمانية أفراد، أخطرهم حالة هو ذلك الفتى ذو الشعر الاسود المجعد والمدعو «بيتر»، فقد كان مصابًا في الرئة!

من ضمنهم أيضًا كان «فرانز واختير»، والذي أصابته رصاصة في ذراعه، فلم تبد إصابة خطيرة في بادئ الأمر..لكن بمجرد حلول الليلة الثالثة أخذ يشتد ألمه، ولم يعد يقدر على التحرك، فطلب منا أن ندق له جرس استدعاء الممرضة، قائلًا أنه قد أصيب بنزيف..

ضغطت على الجرس لفترة لا بأس بها، لكن لم تحضر أية ممرضة.. كنا قد أرهقناها كثيرا تلك الليلة بالكثير من الطلبات، فذهبت مستاءة بالنهاية وهي تغلق باب الغرفة وراءها..

انتظرنا طويلا أن يحضر أحد دون نتيجة، فطلب مني «فرانز» دق الجرس مرة أخرى.. فنفذت طلبه، لكن لم يظهر أحد كذلك.. قلت له بالنهاية:

- أواثق انت يا « فرانز « انك تنزف؟

- الأربطة كلها مبللة.. ألا يمكنك إضاءة النور؟

لم يكن هذا بوسعنا، فقد كان زر إضاءة النور بعيدا بالقرب من الباب، ولم يكن من بيننا من يستطيع الوقوف للمشي حتى يصل له..

ضغطت على الزر من جرس الاستدعاء ثانية حتى تخدل اصبعي، وبالنهاية انفتح الباب لتظهر منه الممرضة الساخطة وقد عقدت حاجبيها.. اقتربت منا ليرتفع صوت غمغماتها الساخطة، لكنها ما كادت تتبين حالة «فرانز» حتى بدا عليها الاهتمام واختفت ملامح السخط من على وجهها.

- لماذا لم تخطروني من قبل؟

- ضربنا الجرس طويلا.. ولا يستطيع أحدنا الوقوف والسير..

كانت الدماء تنزف من الجرح كثيرًا، فقامت الممرضة بوقف النزيف وضمدت جراحه وغيرت ضماداته..

بالصباح بدا شاحباً هزيلا بالرغم من أنه كان يبدو افضل صحة بليلة البارحة.. ومنذ ذلك الموقف صارت الممرضة تتردد على غرفتنا كثيرا دون أي تذمر من جانبها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تتحسن حالة «فرانز» بالأيام التالية، وجاء يوم نقلوه فيه من غرفتنا فلم يعد إليها ثانية.. فسر لنا أحد نزلاء المستشفى القدامى وكان يدعي «جوزيف هماشير» ما حدث بقوله:

- لن نره ثانية.. لقد نقلوه لحجرة الأموات!

- ما هي حجرة الأموات هذه؟

سأله «كروب»، فأجابه:

- حجرة صغيرة قرب نهاية المستشفى، ينقلون لها كل من يشارف على الموت..

- لماذا يفعلون شيئا كهذا؟

- ربما ليوفروا على أنفسهم عناء العمل، لكونها قريبة من المشرحة، وربما كانوا يفعلون هذا شفقة بنا، حتى لا نراهم أثناء احتضارهم وتتحطم أعصابنا.. بالإضافة لهذا فهناك سيتمكنون من العناية به أكثر عندما يكون بمفرده..

- لكن أي شعور سيستولي على البؤساء الذين ينقلون هناك؟

- غالبا ما يكون في غيبوبة فلا يدرك ما يحصل من حوله من الأصل..

- والجرحى يعرفون بوجود تلك الحجرة؟

- كل من قضى فترة طويلة في المستشفى سمع عنها يا عزيزي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حل جريح جديد مساء اليوم فوضعوه في فراش «فرانز» الخالي.. لكن لم يكد يمضي يومان حتى تم نقله هو الآخر لحجرة الأموات.. أشار لي «جوزيف» إشارة ذات معني.. صرت أتشائم من منظر ذلك السرير المنحوس.. أشعر أنه يتسبب في سوء حالة النزيل الذي يوقعه حظه العاثر ليرقد عليه.. كرهت منظر الفراش الخالي وصرت أتفادي النظر له..

طفق أقارب الجرحى يزورون المستشفى فيجلسون قرب فراش جريحهم ويبكون، أو يجلسون فيتحدثون بأصوات خافتة مؤثرة تمزق نياط القلوب..

في أحد الأيام أتت امراة عجوز فلم تغادر الغرفة إلا بالمساء وبعد جهد وتحايل من الممرضة لانتهاء اوقات الزيارة.. رحلت السيدة وأتت في وقت مبكر من الصباح التالي.. لكنها للأسف كانت قد أتت بعد فوات الأوان، فقد فرغ الفراش من ابنها، واحتله جريحا آخر.. ذهبت للمشرحة مكسورة الفؤاد لتلقي على فقيدها نظرة أخيرة، وأهدتنا التفاح الذي كانت قد أحضرته له..

وفي يوم آخر ساءت حالة «بيتر» الصغير، فجاءت النقالة لتقف بجواره.. فقال متوترًا:

- أين ستأخذوني؟

- لغرفة الغيار..

تم نقل «بيتر» إلى النقالة، لكن الممرضة أخطأت عندما التقطت سترته من المشحب ووضعتها على النقالة حتى لا تضطر للسير مرتين.. هنا فهم «بيتر» حقيقة المكان الذي سيأخذونه إليه.. فحاول أن ينحدر من فوق النقالة عائدًا لسريره وهو يهتف:

- لا أريد الذهاب! سأبقي مكاني!

تكالب الممرضون عليه فأعادوه للنقالة، فأخذ يصرخ منهوكا:

- لا أريد الذهاب لحجرة الأموات!

- من ذكر حجرة الأموات يا بني؟ نحت سنأخذك لحجرة الغيار ثم ستعود ثانية..

- لماذا تحملون سترتي معكم إذن؟

وعجز عن المزيد من الحديث بسبب رئته الجريحة، لكنه همس بصوت مؤثر:

- أريد أن أبقى هنا.

لم يجبه أحدهم، وسارت النقالة وهي تحمل جسده على محفتها.. وبمجرد أن وصل للباب حتى حاول النهوض، فمال رأسه للجانب، وملأت الدموع عينيه، وهتف:

- سأعود ثانية! لا تنسوني!

انغلق الباب من خلفهم، بعد أن تحطمت أعصابنا جميعا من ذلك المشهد، لكننا لم نتفوه بكلمة.. وبعد فترة طالت من الصمت، تمتم «جوزيف» بخفوت:

- كلهم يقولون مثل هذا الكلام، لكن للأسف من يدخل حجرة الأموات لا يعود ثانية أبدًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظللت أتقيأ ليومين كاملين، وهدني الإعياء، وما زاد الطين بلة أن مساعد الجراح أخبرني ان عظامي لن تلتئم.. أما «كروب» فقد ساءت حالته أكثر، فأخذوه من غرفتنا فقاموا ببتر ساقه حتى الفخذ!

عند عودته بقي صامتا يرفض الحديث مع أي شخص حتى أنا.. وفي مرة من المرات القليلة التي تحدث فيها قال أنه سيطلق النار على نفسه بمجرد أن يضع يده على مسدسه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يتوقف حلول المرضى بمستشفانا الكريم، وسرعان ما انضم لغرفتنا جريحين ضريرين، أحدهما شاب يعمل كعازف موسيقي، وكانت الممرضات شديدتا الحرص على أن تبعدا المدى عنه أثناء إطعامه، فذات مرة تمكن من انتزاع سكينا من إحداهن وكاد أن يتسبب في أذى كثير لنفسه.. لكن بالرغم من كل الاحتياطات التي اتخذوها، حصلت كارثة!

ففي ليلة ما وبينما كانت إحدى الممرضات تقوم باطعامه، تم استدعاء تلك الممرضة على وجه السرعة، فنسيت في خروجها أن تأخذ الأطباق من أمام المريض، وفوق تلك الأطباق كانت هناك شوكة.. وبمجرد ابتعاد الممرضة حتى انطلقت يد الموسيقار تتحسس طريقها حتى قبضت على الشوكة، وبمجرد أن قبض عليها بيده حتى غرسها بكل ما أوتي من قوة في قلبه! وعندما وجد هذا غير كافي التقط حذاءه من على الأرض وأخذ يضرب به يد الشوكة بكل قوته ليغرسها أكثر..

هنا كنا انتبهنا لما يفعله، فهلعنا وانطلقنا نحاول استدعاء أي شخص.. احتاج الأمر بالنهاية لثلاثة رجال ليتمكنوا من انتزاع الشوكة من يده بعد جهد كبير.. كانت أسنانها قد عبرت من ملابسه وجلده وكادت تصل لقلبه بالفعل.. لم ينس لنا أننا كنا السبب في إنقاذه، فأخذ يسبنا طيلة الليل حتى لم يستطع أحدنا النوم من صراخه.. وعندما أتى الصباح وجدناه قد أصيب بالتواء في فكيه..

مرت بنا الأيام ما بين خوف ورعب ووجع واحتضار، وأخذت الأسرة تخلو من قاطنيها واحدًا بعد الآخر، حتى لم تعد حجرة الأموات تكفي للأعداد التي تدخلها، فقد كان الجرحى يموتون بالعشرات أثناء الليل..

وبعد فترة تم السماح لبعضنا بالنهوض من أسرتهم، فأعطوني عكازين استندت عليهما فتمكنت من السير لبضعة خطوات.. لكنني لاحظت نظرات «كروب» الغريبة لي عندما يلمحني أمشي مستندًا على العكازين، ولم أعد أقدر على تحمل تلك النظرات، فصرت أفضل الخروج للممر الموجود أمام الغرف حتى يتسنى لي السير براحتي..

داخل المستشفى يدرك المرء فداحة الحرب.. ترى كمية القتلى والجرحى المهولة فتتمزق روحك.. كان المستشفى بالكاد يكفي لكل هذه الأعداد.. فخصصوا الطابق الذي يعلونا لجراحات

العمود الفقري والبطن والرأس وحالات البتر، وبالجناح الأيمن تواجدت جراحات الفك والاختناق بالغازات، والأنف والأذن والعنق، بينما في الجناح الأيسر تراصت حالات العمى وجراح الرئة والأمعاء والمفاصل..

ذات مرة قدم لي سكرتير الجراح صور أشعة لأكتاف بعض المرضي، وركب آخرين، وبعض أجزاء الجسد الأخرى، وكانت محطمة تماما حتى تعجبت كيف يكون أصحابها من عداد الأحياء..

كثيرون من الجرحى كانت توضع تحت أطرافهم المحطمة - والتي علقت في حوامل معدنية- أوعية ليتساقط فيها الدم والصديد، قبل أن ترفع تلك الأوعية كل ساعتين أو ما نحو ذلك ليتم افراغها..

ليس بوسع المرء أن يستوعب أنه فوق تلك الأجسام المحطمة والأطراف المهشمة وجوها آدمية لا تزال على قيد الحياة.. لا تزال الحياة تدب فيها وتجري مجراها.. لكن ليس هذا إلا مستشفى واحد، وهناك عشرات وربما مئات المستشفيات المماثلة في جميع أرجاء ألمانيا.. ومئات المستشفيات الأخرى بفرنسا وروسيا..

ومادامت حضارة آلاف السنين لم تتمكن من حقن كل تلك الدماء التي سالت أنهارًا منذ بدأت الحرب، فلا شيء له قيمة في تلك الحياة.. كل شيء عبث وخداع.. لا خير من شيء، ولا فائدة من الكتابة أو الفعل أو التفكير.. ما قيمة كل تلك المثل العليا بينما تمتلئ عنابر المستشفيات بكل تلك الأعداد المهولة من الجرحى المعذبين أو مبتوري الأطراف دون أي أمل في عودتهم لحياتهم الطبيعية؟

المستشفى وحده كفيل بتعرية الحرب وإظهار حقيقتها القبيحة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المفترض أنني لا أزال شابًا.. مجرد فتى غرير لم يكمل العشرين من عمره إلا من شهور قلائل.. لكن ما رأيته في تلك الشهور الأخيرة كان كفيلًا بجعلي أشعر كأني صرت عجوزًا في الثمانين.. لم أعد أعرف من الحياة إلا اليأس والخوف والموت والحزن..

رأيت كيف تقوم الشعوب بالإيقاع بين بعضها البعض..

كيف يتشابكون في صمت..

في جهل..

في غباء وسذاجة..

وفي استسلام..

لست وحدي من يرى هذا.. فالعديد من الشباب في وطني وفي البلاد الأخرى صاروا يرون هذا.. فالجيل الحاضر صار يرى تلك الأشياء بوضوح وجلاء مثلي..

كثيرًا ما افكر في أسلافنا..

ماذا يقولون عنا لو واجهناهم وقدمنا لهم حسابًا بكل ما فعلناه؟

ماذا ينتظرون منا أن نفعل لو وضعت الحرب أوزارها؟

صارت مهمتنا بالحياة طيلة تلك السنين هي القتل والذبح!

صارت تلك هي مهنتنا الأولى بالحياة..

لم يتجاوز علمنا بالحياة حدود الموت..

ماذا سيكون مصيرنا بالغد؟ وكيف ستكون نهايتنا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعدما مرت بضعة أسابيع تقرر أن أذهب كل يوم لقسم التدليك، فتيسر لي السير على قدماي بعد هذا.. وكذلك التأم الجرح الذي تبقى من بتر ساق «كروب» بالكامل، وتحدد له موعد بعد بضعة أسابيع لكي توضع له ساقًا صناعية..

بقي «ألبرت» على هدوئه وصمته.. وكنت أجده كثيرًا يغرق في صمته فيتوقف عن مبادلتنا الحديث، فيحدق أمامه صامتا.. ولو لم يكن معنا في نفس الجناح لأطلق النار على نفسه كما هدد منذ زمن طويل.

بعد بضعة أسابيع حصلت على إجازة نقاهة، ذهبت فيها لزيارة أمي، لكنني وجدتها بادية الضعف والانهاك، وقد ساءت حالتها كثيرًا عن قبل! لم تكن ترغب في نهاية إجازتي أن أتركها وأخذت تبكي بكاءً مرًا، لكن لم يكن من بد من عودتي، فقد انتهت الإجازة وتم استدعائي لميدان القتال من جديد..

كان وداعًا أليمًا ذلك الذي دار بيني وبين صديقي «كروب»، لا يقل ألما عن وجع وداعي لوالدتي.. لكن سرعان ما تعتاد على مثل تلك المواقف في الجيش..

الفصل الحادي عشر

توقفنا عن عد الأسابيع والأيام..

كان الشتاء قد حل حينما عدت للميدان ثانية، فكانت القنابل حين تنفجر تتناثر من حولها قطع الجليد أكثر مما تتناثر حولها من شظايا..

كانت أيامنا تتعاقب بين الثكنات وميدان القتال، وسرعان ما اكتست الأشجار بثوبها الأخضر ثانية..

ظلت أفكارنا تتغير بتتابع الأيام، فتصير في أيام الراحة جميلة محببة، وتنقلب تحت وابل النيران والقذائف فتستحيل خامدة ميتة.. شعرنا بحياتنا الماضية تنطمس وتختفي من الذاكرة، فتخلو مما كنا نعرفه من ثقافة وعلم.. صرنا أشخاصًا يعيشون على الغريزة فلا يأبهون إلا لإشباع حاجياتهم الدنيوية..

لم نكتسب من أيام الجبهة هذه إلا روابط الأخوة والصداقة التي جمعت بين مجموعة من البشر الذين يقف لهم الموت بالمرصاد في كل لحظة، فحولهم لبشر يسعون لاقتناص كل ما يمكن لهم اقتناصه من متاع الدنيا قبل أن يهجم عليهم فينشب فيهم أنيابه!

وربما يفسر هذا ما كان يجعل «جادن» ينقض على طعامه فيلتهمه كالضواري عندما تكون هناك معركة قريبة، فهو لا يعلم ما إذا كان القدر سيمهله فيظل حيا بعد المعركة ليهنأ بالطعام أم لا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يمر وقت طويل إلا وكان «موللر» قد توفي!

أصابته رصاصة في أمعائه، فلم يعش بعدها إلا لنصف ساعة ظل خلالها فاقد الرشد، يكابد أشد الألم..

قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة أعطاني مفكرته وحذائه الذي كان قد حصل عليه من «كمريخ».. ارتديته فوجدته يطابق مقاسي فبقيت مرتديه، واعدًا «كات» أن يكون من نصيبه لو وافتني المنية.. وارينا «موللر» التراب، متمنين أن يظل تحته.. فقد كانت خطوطنا تواجه الكثير من المشاكل بسبب نقص الإمدادات، ومنها التراجع للخلف وقلة العدد.. فإمدادات الأمريكيين والإنجليز كانت تفد بوفرة على الجبهة، بعكسنا.. وكانت المؤن والذخائر عندهم وفيرة بشكل يفوقنا.. بينما نحن قد هاجمنا الجوع وأنهكنا الهزال، وكانت الأغذية الرديئة التي تصل إلينا مخلوطة بالكثير من المواد الكيميائية التي تصيبنا بالأمراض..

وبينما نحن على هذا الحال من المرض والهزال، والدوسنتريا تفتك بأجسامنا، كان أصحاب المصانع في ألمانيا يحققون اكثر الارباح ويكدسون الثروات..

يكفي لمواطن من مواطنينا أن يطالع وجوهنا الشاحبة المنهكة وأجسادنا المتقوسة ونظراتنا الزائغة ليدركوا أي حضيض وصلنا إليه..

وفجاة نفذت ذخيرتنا، فلم يتبق بمدفعيتنا إلا بضعة قذائف معدودة تنطلق مترددة محتارة كأنها تفكر في الارتداد علينا وسحقنا لغبائنا..

وعندما فكروا في إرسال فرقة إمدادات لنا لم يكن بها غير مجموعة من الغلمان الهزيلي الأجساد الذين فتك بهم المرض والتعب.. فلا يقوون على حمل المعدات، ولا يتقنون فعل شيء غير الموت!

وكانوا فعلاً يموتون بالآلاف!

لم يتقنوا شيئًا من فنون الحرب، بل كانوا يتقدمون بكل بساطة فيتركون الموت يحصدهم حصدًا بكل سهولة ودون مقاومة.. لدرجة أن «كات» قال ذات مرة:

- بهذا الشكل سرعان ما ستخلو ألمانيا من سكانها!

كانت قنابل العدو من أمامنا، ومعها نيران المدافع، تصاحبهم الغازات الخانقة.. ولو نجوت من كل هذا فستأتي دباباتهم الضخمة لتسحق وتحصد الأرواح حصدًا..

وكأن كل هذا غير كافي، انطلقت الدوسنتريا تتفشي بيننا يصاحبها التيفود والأنفلونزا، فكانت أشد فتكًا وتسلمنا للموت بشكل أكبر.. كنا نحترق بين ما بالخنادق من أهوال، وما بالمستشفيات من مرض وموت.. لا مهرب لك من أحدهما إلا للآخر..

تحطمت وتمزقت الخنادق، فانقسمنا شراذم متشتتة تقود القتال من حفر الخنادق والمنخفضات.. لكن للأسف قام جنود العدو بمحاصرتنا بينما كنا نحتل إحدى الحفر مع قائد فرقتنا الباسل المدعو «بريتنيك»، وسرعان ما وصلت لأنوفنا سحب البارود التي اختلطت برائحة البترول.. بعد هذا رأينا اثنين من جنودهم يحملون قاذفات اللهب، بالإضافة لكون أحدهما يحمل خزانا فوق ظهره، بينما أمسك الثاني بين يديه بخرطوم اندلعت منه السنة النيران.. لو وصلا إلينا سيكون مصيرنا الموت، فلا مجال للتراجع لأنهم سيروننا، هكذا قمنا بتسليط نيراننا عليهم، لكنهم استمروا في الاقتراب، فساء موقفنا..

رأي «بريتنيك» أننا لا نقدر عن اصابة اي من الجنديين لشدة انشغالنا بالهروب من النيران الموجهة نحونا.. هكذا قرر تناول بندقيته وخرج زحفا من الحفرة، قبل أن يتمدد على الأرض مستندًا على مرفقيه، وسدد بندقيته ثم قام بإطلاق النار!

أصابته رصاصة منهم في نفس اللحظة، لكنه أصر على البقاء مكانه وسدد بندقيته من جديد وأطلقها، ثم هتف يعد ثانية:

- رائع!

بعدها زحف عائدًا للحفرة.. كانت رصاصته قد أصابت الجندي الذي يحمل الخزان، فسقط منه، وسرعان ما انزلق الخرطوم من يد الجندي الآخر، فتبعثرت النيران في كل النواحي فأحرقته حيا.. لكن جرّاء تلك المغامرة أصيب «بريتنيك» في صدره، ثم بعد دقائق قليلة هاجمته شظية متناثرة في عنقه، فقتلته في لحظتها!

كانت شظية ضخمة لدرجة أنها أصابت «لير» كذلك في جانبه الذي أخذ ينزف الدماء بسرعة، فلم يتسن لأحدنا الفرصة لنجدته.. وإن هي إلا دقائق قليلة حتى كان قد قضي نحبه هو الآخر..

فهل أجداه نفعًا مهارته في الدراسة استعدادًا ليكون محاسبًا ماهرًا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تتابعت الشهور، فأتي صيف ١٩١٨ ليضرب رقما قياسياً بصفته أسوأ فترة مرت علينا وأكثرها امتلاءً بالدماء.. ومن بقي حيا وقتها أدرك أننا خاسرون تلك الحرب اللعينة بلا أدنى شك..

بدأ تقهقرنا بغير انتظام، وكنا نخلي مواقعنا دون حذر.. لم نلبث أن أدركنا استحالة معاودة الهجوم على جند الأعداء.. فلم يعد باقيا منا رجال أو عتاد تسمح بهذا..

لكن بالرغم من كل هذا فقد استمرت رحى الحرب تدور، واستمر الموت في حصد أرواحنا..

تكالبت علينا طائرات العدو، وبلغ الغرور بقادتها أنهم انطلقوا يحصدون رجالنا الذين انطلقوا جريا على أقدامهم، كما يخرج الأثرياء لصيد الأرانب البرية..

وبلغت قلة عددنا درجة أن الطائرة الألمانية الواحدة كانت تجد نفسها في مواجهة خمس من طيارات الإنجليز والأمريكيين!

ولم يكن حظ جنودنا أفضل، فكل جندي ألماني جائع هزيل كان يجد أمامه خمسة من جنود الأعداء صحاح الجسد، كاملي القوى.. ولا عجب في هذا، فكل رغيف خبز ألماني هزيل متواضع يقابله لديهم نحو خمسين عبوة من اللحم المحفوظ الجيد المستوي..

صحيح أننا كجنود كنا أفضل منهم على مستوي الخبرة والتدريب، لكن ما قيمة كل هذا أمام ما لديهم.. الواقع أن لفظ هزيمة كان أضعف من أن يصف حالنا..

لم نهزم، لكننا تم سحقنا أمام تلك القوة والعتاد والتجهيزات التي لا قبل لنا بها..

كنا ننحبس داخل الخنادق في أيام الشتاء، مغطين بالمياه والوحل، وقد صارت الأرض من حولنا مجرد كتلة طينية ذائبة يتخللها الكثير من خيوط الدماء، بينما كل شيء من حولنا قد صار سائلًا ذائبًا.. كان مستوانا يهبط تدريجيًا إما ميت، وإما جريح لا يزال يحاول التشبث بأنامل الحياة عبثًا ضد كل ما حوله من ظروف..

صارت أجسادنا هي الأخرى كتلا من الطين والوحل لا تختلف كثيرًا عما حولها، فلم نعد نعرف هل نحن أحياء أم أموات وصرنا جزءًا من التراب..

وانقضي الشتاء ببرده القارص ليحل مكانه الصيف بحره القائظ.. وفي أواخر أيامه سقط «كات» !

كان قد خرج من الحفرة التي صرنا فيها بمفردنا ليحضر بعض الطعام لنا، فأصيب في ساقه بشدة لدرجة أن العظمة تحطمت.. حاولت تضميد جراحه بقدر استطاعتي، فسمعته يقول من بين اناته:

- أفي آخر وقت أصاب بهذا بعدما صمدت كل ذلك الوقت!

أخذت أواسيه بقولي:

- من يعلم حتى متي سيستمر ما نحن فيه من مجازر! فلنحمد الله على أنك لم تخرج إلا بهذا الجرح..

لكنه أخذ ينزف بغزارة، ولم يكن بوسعي تركه بمفرده لأذهب بحثًا عن نقالة تحمله، بالإضافة لأني لم أكن أعرف مكان مقر النقالات هنا من الأصل!

وبما أن «كات» كان خفيف الجسد، فقد قررت حمله على ظهري قاصدًا أخذه للمستشفى رأسًا.. استرحنا في طريقنا مرتين، الذي تألم «كات» أثناءه بشدة، ولم يكن بوسعنا تبادل إلا كلمات قليلة من فرط تعبنا.. شعرت بالعرق يسيل على جبهتي، بينما رئتاي تكادان تتفجران من التعب.. لم أجد بوسعي التنفس بسهولة، ولم يكن حال رفيقي المصاب أفضل، فقد كان أنينه لا يتوقف، وسرعان ما انفتحت ضماداته لتنفجر الدماء من أسفلها ثانية.. ضمدت جراحه بما كان متبقيا معي من أربطة، وأخذت أستحثه على مواصلة التقدم، فبقاؤنا بهذا المكان سيكون بالغ الخطر علينا..

رفعت جسده عن الأرض، فانتصب في ضعف مستندا بثقله على الساق السليمة، واستند على شجرة هزيلة بجانبه.. تناولت ساقه الجريحة بحرص، فوثب للأمام قليلاً، فحملت ساقه الأخرى، وهكذا..

كان تقدمنا شاقا متعبا، فقد كانت القنابل تنفجر بين وقت وآخر، فأخذت أحث نفسي على الإسراع في السير، فقد عادت جراحه تنزف من جديد، لكن لم نتمكن من الإفلات بالكامل من المتفجرات.. فقد كان الخطر يعاودنا قبل أن نتمكن من اللجوء لمكان الاحتماء.. بالنهاية هبطنا لحفرة صغيرة منتظرين نهاية تلك الغارة، فقدمت لـ «كات» بعض الشاي الذي كنت أحمله معي في زجاجة، وشرعنا مع رشفات الشاي ندخن سيجارتين.. وجدت نفسي أردف في حزن:

- سرعان ما سيتفرق مصيرينا يا «كات»..

نظر نحوي في صمت، فغمغمت:

- أتتذكر كيف خطفنا تلك الأوزة وقمنا بذبحها؟ تتذكر حين كنت انا لا أزال متطوعًا جديدا وجرحت للمرة الأولى فحملتني تحت وابل النيران؟ لقد بكيت وقتها يا «كات».. تقريبا مرت ثلاثة أعوام على ذلك اليوم..

أوما برأسه صامتا.. شعرت بألم الوحدة والوحشة ينهشني بكل قواه.. لو ذهب «كات» هو الآخر فلن يبق لي صاحب! همست له:

- يجب أن نرى بعضنا مهما حدث.. لو انتهت الحرب وقاموا بالهدنة قبل عودتك فسوف...

قاطعني بمرارة:

- أتظنني ساصلح للميدان أبدًا ثانية بساق مثل هذه؟

- نعم! ستتحسن حالتها بعد أن تظفر ببعض الراحة.. المفصل نفسه سليم.. أنا متأكد أنها ستعود كما كانت وأفضل..

- أعطني سيجارة ثانية بالله عليك..

- ربما قمنا ببعض العمل معًا فيما بعد..

لم أكن أصدق أنني ربما لن أر «كات» ثانية، الذي كان صديقي الحميم لدرجة الأخوة، بالإضافة

لمشاركتنا تلك السنوات الحافلة سوياً.. كنت في أشد حالات الكرب والحزن.. استطردت بصوت مختنق:

- مهما كانت مجريات الأمور يا «كات»، سنتراسل.. أعطني عنوان بيتك، وها هو عنواني.. سأكتب لك..

وكتبت عنوانه في مفكرتي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما حل الليل بظلامه شعرت باليأس والإحباط يخنقانني..

كان «كات» لا يزال جالسًا بجانبي في صمت مستسلمًا.. فكرت أن أطلق النار على ساقي لكي يأخذوني معه، وكنت على وشك فعلها فعلًا عندما ارتفعت حشرجته مقاطعة أفكاري، قبل أن يقول متلعثما:

- هيا نستأنف السير..

لاحظت وجهه الممتقع، فقمت على الفور من مكاني وحملته، وانطلقت راكضًا به ركضا خفيفا حتى لا أتسبب في ألم ساقه.. شعرت بحلقي يجف، وكل شيء أمامي يتراقص وقد شابته حمرة وسواد.. لكنني تحاملت لأظل متماسكًا حتى وصلنا للمستشفى.. تهاويت على ركبتي، وبالقوى القليلة المتبقية بداخلي سقطت على الجانب الذي توجد فيه ساق «كات» السليمة..

بعدما مرت بضع دقائق وقفت ثانية، لكنني ألفيت يدي وساقاي ترتعدان بشدة، وبالكاد وبعد جهد شديد استطعت تناول زجاجة من المياه.. أخذت شفتاي ترتجفان وأنا أرشف بضع قطرات بصعوبة، لكنني كنت سعيدًا.. فقد سمح لي القدر بإنقاذ «كات»..

رنت العديد من الأصوات المختلطة في أذناي بعد لحظات، وسمعت صوت رجل يتحدث:

- لم تكن بحاجة لبذل كل هذا المجهود..

لم أفهم مقصده.. نظرت نحوه في غباء، فأشار نحو «كات» قائلاً:

- لقد مات!

لم أفهم.. قلت وانا أرتجف:

- ل..لكن.. لقد أصيب في ساقه فقط!

هز الممرض رأسه قائلا:

- ورأسه كذلك..

أخذت أتلفت من حولي شاعرًا بالضياع.. مرت سحابة من أمام عيناي، بينما سال عرقي من جديد فوق وجهي فغمر عيناي ليحرقهما.. جففته ناظرًا نحو رفيقي الذي كان يتمدد ساكنًا.. هتفت مسرعًا:

- لا.. أنت مخطئ.. لقد أغمي عليه فقط!

أجابني الممرض:

- بل هو ميت يا بني.. أنا خبير بهذه الأشياء..

هززت رأسي في قوة نفيا..

- مستحيل.. لقد كان يتحدث معي منذ أقل من عشر دقائق! أكيد أغمي عليه فقط..

شعرت بيدا «كات» دافئتان، فمددت يداي أرفع رأسه لتدليك صدغيه آملًا أن يكفي هذا لإفاقته، شعرت بشيء لزج يلطخ يداي، فجذبتهما مذعورًا.. كانت يداي ملطختان بالدم!

نظرت مذعورًا نحو الممرض الذي قال في شفقة:

- ألم أخبرك؟

كان «كات» قد أصيب في صدغه بشظية صغيرة تطايرت نحوه أثناء سيرنا دون أن أفطن لذلك.. رأيت الثقب الدقيق الذي ينزف دمًا.. كان صغيرا للغاية لكنه كان كافيا لقتل رفيقي «كات» !

نهضت في بطء، بينما صوت الممرض يتردد:

- أترغب في حمل أدواته معك؟

توقفت مكاني، ثم أومأت برأسي، فتناول الأدوات وأعطاها لي.. قال الممرض حائراً:

- هل أنتما قريبين؟

- لا.. لسنا أقارب.. لكنني أقرب أصدقائه..

قلتها في شرود.. لم أعد أشعر بأي شيء..

هل تبقت لدي قدمان؟ هل كنت أخطو فوقهما؟ لم أعد أعرف..

كل ما أعرفه هو أنني عندما درت بعيناي في أرجاء المكان، شعرت بالعالم يدور من حولي.. الجدران، الأسرّة، الممرضين، وكل شيء.. حتى الأرض شعرت بها تغوص من تحتي، ثم لم أعد أشعر بشيء!

وسرعان ما اكتسي العالم كله سوادًا لا يعكره أي بريق من الضوء!

الفصل الثاني عشر

عندما حل الخريف التالي لم يعد باقيا من الجنود القدامى إلا القليلين، فبقيت بمفردي من بين المجموعة التي التحقت بالجيش من فصلنا!

كان الجميع يلوكون الحديث عن الهدنة المرتقبة التي قبعوا في انتظارها..

كان الأمل يغمر جميع الألمان، فلو لم يحدث سلم فعلا بعد كل هذه الأخبار والآمال، فلسوف يكون رد الفعل دمويا كاسحا..

إذا لم يحدث سلم حقًا، فلسوف تقوم ثورة!

تسربت بعض الغازات لرئتاي، فتم منحي إجازة أسبوعين..

جلست طيلة النهار تحت أشعة الشمس في حديقة بيتنا الصغيرة..

ظننت كما ظن غيري أن تلك الهدنة التي صدعوا رؤوسنا بها على وشك الحدوث، وعندما يحدث هذا سنعود جميعًا لأوطاننا..

تجمدت أفكاري عند هذا الحد فلم تتحرك عنه قيد أنملة..

كان كل ما يجول بخاطري مزيجًا من المشاعر الفياضة.. مزيجا من التعطش للحياة، على لهفة العودة للمنزل، مع حنين للأهل ونشوة الشعور بأنك نجوت من تلك الأيام العصيبة..

لكن لم يكن ثمة غاية أو هدف..

لو أننا عدنا بالزمن لعام ١٩١٩ لكنا أطلقنا ثورة جامحة توازي الأهوال التي رأيناها وقاسيناها.. أما لو حدث وعدنا هذه الأيام، فسنكون منهوكي القوى،محطمي الروح، محترقين الرغبة في الغد، شاعرين بالضياع..

والمشكلة أن الناس لن تفهمنا، وخصوصًا ذلك الجيل الذي يكبرنا، فرغم أنهم قضوا معنا بعض سنوات الجبهة، إلا أنهم لا يزال لديهم مهنة وبيت يعودون إليهما، ولن يلبثوا بعد بضعة أعوام أن ينسوا تلك السنين العجاف التي مررنا بها، فيعودون لحياتهم القديمة، وينسون الحرب بالكامل..

وحتى من نشأوا بعدنا سيكونون كالغرباء عنا.. لا أفكارهم مثل أفكارنا، ولا عقولهم تشابه عقولنا..

صرنا كمنتجات انتهت صلاحيتها، فلم يعد منها فائدة.. صحيح أن بعضنا سيبذل جهداً-ربما ينجح فيه- للاندماج في هذه الحياة، بينما سيمتثل آخرون منا لقضاء الأيام، إلا أن معظمنا سيبقي فريسة للتشوش والاضطراب..

صحيح أن الأعوام ستمر، لكنها ستمر كمطحنة تروسها الأيام لتطحن ما تبقى بداخلنا من روح فتقوس ظهورنا..

لكن ربما لا تتعدي تلك الأفكار ان تكون نتيجة للكآبة التي أمر بها، فلا تلبث أن تتطاير فتتشتت كالدخان لو تسني لي العمر أن أنتصب واقفا بين الأشجار الوارفة فأصغيت إلى حفيف أوراقها وزقزقة العصافير من فوقها..

صعب للغاية تخيل الشباب العامر بالحياة والآمال وقد تلاشى تحت غمرة الانفجارات والقذائف.. مستحيل أن تصير أحلام المستقبل وابتسامات الأمل قد اختفوا تحت أنقاض الحزن واليأس..

ها قد انتصبت الأشجار مبهجة الألوان، تعلوها الورود النضرة ذات الألوان الأخّاذة، تجاورها ثمارها اليانعة التي دنت قطوفها، بينما إشاعات وشعارات السلام تتردد هنا وهناك وعلي كل لسان..

نهضت من مكاني هادئاً، مقررًا أنني لن أسمح للشهور أو السنين أن تنال مني ما تشاء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صحيح أنني صرت بمفردي، بلا أمل ولا مأوى، لكنني كفيل على مواجهة الدنيا وتعاقبها بلا خوف أو حزن..

صحيح أن تصاريف الحياة التي مررت بها طيلة تلك الأعوام لا تزال تشتعل داخل فؤادي، ولا أدري إن كنت قد تمكنت من إخمادها، إلا أنني سأقاوم مادامت أنفاسي تتردد في صدري، حتى لو ظلت تقاوم إرادتي الجديدة التي نشأت داخلي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النهاية

في أحد أيام أكتوبر عام ١٩١٨، وقع بطل تلك المأساة الطويلة فلحق بأصحابه..

كان يومًا هادئًا ساكنًا شمل سكونه هذا جميع أرجاء الجبهة،

فلم يتم ذكره في التقرير الحربي بأكثر من بضع كلمات تافهة:

«كل شيء هادئ في الجبهة الغربي»..

وقع على وجهه، فرقد على بطنه كأنه ذهب في النوم..

بدا هادئ الملامح، منفرج أسارير الوجه، باسم الثغر، كأنه أسعده أن حلت نهاية حكايته الطويلة أخيرًا..

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..